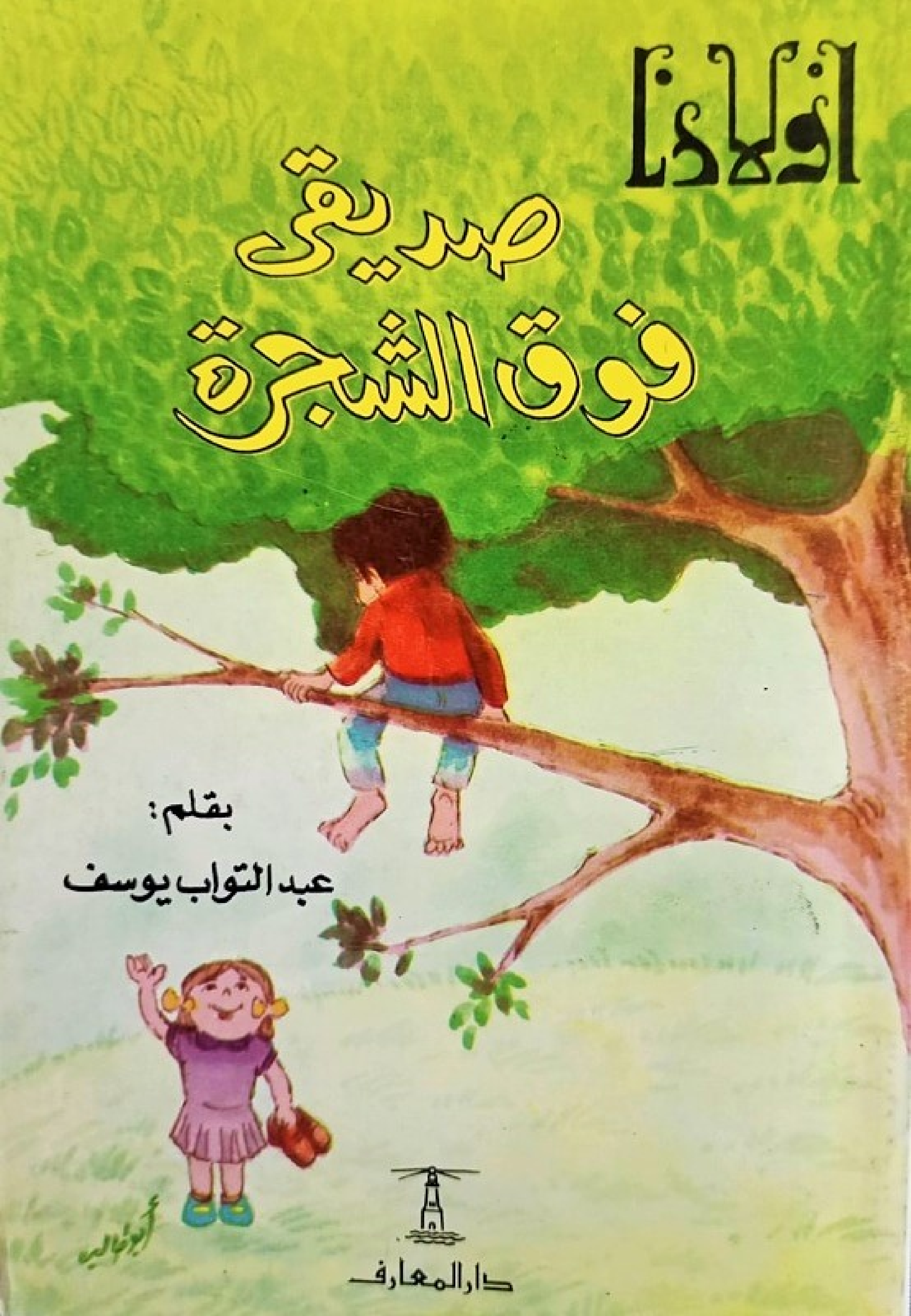


أولادنا

صديقي فوق الشجرة

بقلم:
عبد التواب يوسف

دار المعارف

صديقي فوق الشجرة

أولادنا

٣٥

صديقى فوق الشجرة

للكاتب النرويجى : ترمود هايوجن
الفائز بجائزة اندرسون العالمية فى أدب الأطفال ١٩٩٠

بقلم : عبد التواب يوسف

الطبعة الثانية

دار المعارف

رسم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

هذه الرواية

هذه أول مرة يترجم فيها عمل لواحد من الفائزين بجائزة أندرسون العالمية فى أدب الأطفال – وهى تقابل نوبل فى أدب الكبار – وهى تمنح كل سنتين منذ عام ١٩٥٦ لكاتب من الأحياء ،وقد حصل عليها حتى الآن ١٨ كاتبًا : ثلاثة من أمريكا ، واثنان من كل من ألمانيا والسويد ، وواحد من كل من إنجلترا وفرنسا وفنلندا وإيطاليا والدنمرك والاتحاد السوفيتى وهولندا والنرويج والنمسا .. وأيضا أستراليا .. والبرازيل ..

ونعرف عن يقين أن اسمًا واحدًا من أسماء هؤلاء الأعلام الذين حصلوا على هذه الجائزة لم يصل إلى أسماع كتاب أدب الأطفال فى وطننا العربى ، ولا إلى الباحثين والدارسين لهذا الأدب ، إذ أننا فى عزلة كاملة عما يجرى فى هذا المجال عالميًّا ، ناجمة عن جهد لا قدرة لنا على بذله ، وجهل يصور لنا أن هذه « التبسيطات » التى تكتب لأطفالنا أدب أو شىء من هذا القبيل .. ويتطاول البعض قائلاً إن أدبنا يضارع ، بل ويسبق أدب الأطفال العالمى ، دون أن يقرأ لهؤلاء كتابًا واحدًا عن هذا الأدب : تاريخيًّا أو معاصرًا .. وهذه مأساتنا فى مجالنا أو سواه .. ولعل هذا هو السبب فى أن سطرًا واحدًا لم يكتب فى الموسوعات العالمية عن أعمالنا للأطفال ، وأن اسمًا واحدًا لم يصل إلى صفحات من يكتبون للأطفال على مستوى العالم .

وتورمود هاويجين كاتب نرويجى ، فاز بهذه الجائزة عام ١٩٩٠ ..

والجائزة تمنح لكاتب تكون أعماله قد أضافت جديدًا إلى أدب الأطفال العالمى .. وتعتبر أكثر جائزة عالمية للكتاب والرسامين .. وهذه أول مرة تمنح لكاتب من النرويج ، وإن كانت قد منحت لاثنتين من السويد هما استريد لندجرين ١٩٥٨ ، ومارياجريب ١٩٧٤ .. ولكاتبة من الدنمرك هى سيسيل بودكر ١٩٧٦ .

وتورمود هاويجين من مواليد ١٩٤٥ ، نال من قبل ذلك عدة جوائز فى بلاده وعلى المستوى العالمى .. حصل عام ١٩٧٩ على جائزة عن كتابه طيور الليل ، وعام ١٩٨٦ حصلت أعماله على جائزة النرويج فى أدب الأطفال ، وفى عام ١٩٨٧ حصل على جائزة أحسن كتاب صدر فى أوربا فى ذلك العام .. وقد بررت اللجنة منحه جائزة أندرسون قائلة .. :

« تعتبر أعمال هذا الكاتب قمة فى مجال أدب الطفل ، وعلى مستوى رفيع من العمق والخصوبة ، وهو يكتب ببراعة واقتدار ، وببساطة تذهل القارئ الصغير والكبير .. وقد ترجم إلى ١٥ لغة عالمية .. وهو يغوص عميقًا فى المشكلات النفسية للأطفال ، وقادر على التعبير عن مشاعرهم وعواطفهم التى لا يهتم لها الكبار ولا يقدرونها حق قدرها .. وهو فى نفس الوقت يبدى لونًا من التعاطف مع الكبار كما يتناول بالتحليل علاقاتهم المعقدة مع أبنائهم ، وذلك من خلال مواقف مثيرة ، وأسلوب شاعرى غاية فى الجمال والعذوبة يعبر به عن الحياة اليومية التى يحاول أن يعطيها بعدًا أعمق .. إنه يكتب عن الاتصال والانفصال ، عن الخوف والأمل ، والصراع من أجل تأكيد الهوية والخصوصية ، والذى هو معركة حياة أو موت .. وكتاباته تمحو فكرة المراحل العمرية ، وهو يتبنى وجهة نظر الأطفال ، وشاعريته وتكثيفه للأحداث تعتبر علامة مميزة فى كل أعماله .. »

وقد ترجمت روايته التى اختار لها عنوان « طيور الليل » إلى الإنجليزية وصدرت عام ١٩٨٢ ، وهى تحكى عن جاك وهو فى الصف الثانى من المدرسة ، مضطرب بسبب مرض أبيه ومشاكله المستمرة ، وبسبب عودة أمه فى ساعة متأخرة من عملها اليومى الشاق ، الذى لا تحبه وبسبب تصوره أن دولابهم فى غرفة النوم فيه طيور جارحة ...

كان واضحًا أن متاعب الصغير تزيد وتنقص وفق حالة والده الصحية ، النفسية .

(الواقع أن لديه مخاوف داخلية كثيرة)

القصة تنسج حبًا متبادلاً بين أفراد العائلة الثلاثة كل لآخر .. وينضج جاك قليلاً ويتغلب على كثير من متاعبه ومخاوفه عندما يعرف أن البنت التى تستمتع بمضايقته فى المدرسة ،تخترع حكايات وهمية ، والأب يقترب منه ويتعرف على مشاكله ويحاول علاجها ..

وقد اختير الكاتب النوريجى الكبير من بين مرشحى ١٨ دولة :

ميرا لوب - (النمسا) ، زيرالدو (البرازيل) ، حين يو - جن (الصين) ديلفينا كولادو (كوستاريكا) ، كلارا جارينكوفا (تشيكوسلوفاكيا) ، بيتر هارتلنج (ألمانيا الشرقية) ، بيير جريبارى (فرنسا) ، ديك كنج سميث (انجلترا) ، أنجليكى فاريلا (اليونان) ، رينيه ريجيانى (إيطاليا) ، مادو ميشياو (اليابان) ، مييب ديكمان (هولندا) ، جابريل جانير مانيلا (أسبانيا) ، باربو لندجرين (السويد) ، كاترين باترسون (أمريكا) ، أينورايود (الاتحاد السوفيتى) ، وبجارن رويتر (الدنمرك) الذى لقى تقديرًا كبيرًا من أعضاء لجنة التحكيم ..

لا يفوتنا أن نذكر أن ليسبيث زويرجير – من النمسا – قد فازت بجائزة هانز أندرسون في الرسم .. وهى من مواليد عام ١٩٥٤ ولها رسوم رائعة لأعمال جريم وأندرسون وديكنز وأوسكار وايلد ، و أو . هنرى ..

عبد التواب يوسف

- ١ -

إيفا ، ومارتن ، ونينا : أم وأب وطفلة .. أسرة .. عائلة سعيدة ، لديهم تقريبًا كل ما يحتاجون إليه : بيت ، وسيارة ، وتليفزيون ملون ، وبيت ريفى يقضون فيه الإجازة .. وعندهم فوق هذا : بعضهم البعض !

- ٢ -

الشفاه المبتسمة تكشف عن السعادة ، ومارتن يقول :

- أنت محظوظة يا ابنتى .. هناك ابتسامات لك فى كل مكان .. فابتسمى فإذا لم تبتسمى الآن ، متى يكون ذلك ؟

- ٣ -

والسعداء يبتسمون .. والزوجان مارتن وإيفا مبتسمان باستمرار إذا ما كانت نينا بينهما ، لكن عيونهم قليلاً ما تبتسم .. هذا مالاحظته نينا !

- ٤ -

إذا نسيت أن ١ + ١ = ٢ ، فيجب ألاَّ تنسى أرق شيء : أغنية من أجل نينا قبل النوم ، عندما كانت صغيرة .. ونينا لطيفة إذا ما استجابت إلى ما تقوله ماما وما يقوله بابا ، وهى سيئة إذا استجابت إلى نينا ..

وإيفا تقول : السعداء طيبون .. ولهذا فإن إيفا ومارتن طيبون مع بعضهما ،

ومع الأصدقاء ومع الحيوانات .. هما أبوان صالحان ولهذا تحاول نينا أن تكون طيبة لتكون أسعد .

– ٥ –

رأت نينا حلما سيئًا ، مع أنها طيبة ، لم تصارح به أحدًا . كانت تصحو من حلمها هذا أحيانًا لتبكى وتدعو الله ألا ترى هذا الحلم مرة أخرى .. لكنه تكرر .. كانت ترى شخصًا ما يطاردها ، وهى تجرى هاربة منه ، كان نحيفًا طويلاً يرتدى غطاء رأس أسود .. كان يقترب منها كثيرًا ، ذراعاه طويلتان ، وأصابعه البيضاء تمتد لكى تمسك بها .. وفجأة تجد فى يدها عصًا ، تضربه بها عدة مرات ، ويسقط على الأرض .. كان الرجل شبه مارتن .. وتصرخ نينا وتصحو وهى غير قادرة على أن تفهم شيئًا .. كيف يمكن لها أن توجه لأبيها إساءة حتى فى الحلم ؟ إنه طيب .

– ٦ –

كان العم أوولى يقول : أعتقد أن الحوريات فيهن من نينا الكثير ، وتتذكر نينا بطاقات بريدية ، عليها رسوم يتخيلها الفنانون للحوريات ، ولم تكن تحب حورهن ، بتلك الأجنحة الزائفة .

– ٧ –

كانت هناك نينا التى تأخذ بدون إذن نقودًا تشترى بها الشيكولاته ، ونينا التى تكسر منفضة سجاير .. منفضة ثمينة تعتز بها خالتها ريتا .. ونينا فى الحقيقة لا تعرف نينا هذه ، لأن نينا التى تحبها إيفا ومارتن

لا ترتكب مثل هذه الأشياء ، وهى تضيق بهذه القرية التى تأتى وتدعى أنها نينا وترتكب هذه الأمور ، لأن نينا تريد أن تكون محبوبة .

- ٨ -

إن نينا ورثت شكل ذقنها من خالتها ريتا ، وورثت شكل خدود عمتها أوتو .. وورثت شكل أذنى جدتها ، وأصابع أقدام جدها .. وعن أبيها ورثت عينيه ومن أمها شعرها .. وساقاها شبيهان بساقى حيتا ، كما أن ظهرها مثل ظهر العم أوولى .. إذن نينا لا شىء .. ليس فيها شىء من عندها !

- ٩ -

وذات مرة انطفأت الأنوار ، وكان مارتن مع نينا فى الصالة بينما كانت إيفا فى المطبخ .. والهدوء يغمر البيت ..

- مارتن .. ولم يجب الأب - مارتن ..

لم يكن هذا هو صوت إيفا ، بدأ كأنما هو صوت شخص آخر .. وهبت نسمة باردة على الصالة ، ثم عادت الأضواء مرة أخرى .. قال مارتن :

- ما من شىء يمكن أن يثير الخوف

قالت إيفا : لم أكن خائفة ..

لكن نينا كانت تعرف أن أمها كانت خائفة !

- ١٠ -

إنها تتذكر فترة رهيبة .. كانت فى السادسة من عمرها حين غادرت البيت ولم تعد .. هى لا تستطيع أن تتذكر أكثر من ذلك ، ولا تدرى لماذا حدث هذا .. غير أنها لم تنسَ أن الليل جاء ، وحل الظلام ، وأنها كانت وحيدة ، تبكى ، والتقى بها واحد من رجال الشرطة عاد بها إلى البيت .. كانت النوافذ مضاءة ، وكانت إيفا تبكى ، وقد وقف مارتن وراء المقعد الذى تجلس فيه ، وقالا لها :

– كيف تفعلين بنا هذا ؟ لماذا تسببين لنا كل هذا الفزع ؟

وعقوبت بشدة ، وأرسلت إلى فراشها دون كلمة تطيب خاطرها ، وبدون طعام العشاء ، أو ريشة خفيفة على خدها وكتفها ، أو حكاية ..

لقد حدث شىء ما لنينا فى هذا اليوم ، مازالت لا تعرفه ، وربما أدركته ذات يوم .

- ١١ -

هناك أشياء كثيرة لا تتذكرها نينا .. مرة ، جاءتها أصوات صاخبة غاضبة من وراء باب مغلق ، كما ترامى إليها بكاء إيفا – أمها – وهى وحدها فى غرفة النوم ، ومرة امتد الصمت طويلاً ما بين أبويها مارتن وإيفا .. حدث هذا ، فجأة .. ولم تشر إيفا ولم يذكر مارتن شيئًا عن هذا لنينا .. ربما يكون كل هذا مجرد خيالات وأوهام لأنهم أناس سعداء !

- ١٢ -

– عندما كنت طفلاً .. هكذا يبدأ مارتن حديثه ، عند ذلك تنظر إليه إيفا فى ضيق ،وتقول : إنك تبدو كأنما قد أصبح عمرك مائة عام ! .. عند ذلك يتوقف مارتن عن الكلام ، ويغادر الغرفة .

- ١٣ -

قالت إيفا يومًا وهى تنفض الغبار عن إطار صوره :

– هذا أبى وهذه أمى يانينا .. هل ترييننى أشبه والدتى ؟

تطلعت نينا للصورة طويلاً ، وهزت رأسها ..

قالت إيفا فى صوت خفيض : إنى أرجو ألاَّ أكون فعلاً شبهها !

ولم تفهم نينا ما تقصده أمها ..

- ١٤ -

فى الساعة الثامنة من مساء العاشر من يوليو حدث شىء لا يمكن أبدًا أن ينساه مارتن أو إيفا أو نينا .. كان يومًا رائعًا بالنسبة لنينا : كانت تلعب مع سيلفيا وجورين ، ولم يحدث شجار بينهم قط ..

قالت سيلفيا : هل أراك غدًا ؟ ! ردت نينا فى صوت بهيج : طبعًا ..

- ١٥ -

كانت نينا قد نسيت أنهم فى الغد سيكونون فى بيتهم الريفى من أجل قضاء الإجازة .. تذكرت هذا عندما عادت للبيت ، وهمست لنفسها ..

– ليست لى أدنى رغبة فى الذهاب

نظر إليها مارتن وإيفا ولم ينطقا بكلمة واحدة ، وساد صمت ثقيل ، قالت إيفا على أثره :

– يجب أن ترتبى حقائبك ..

– حاضر يا أمى ..

واختفى أثر الكلمات التى تفوهت بها !

وتصرف الأبوان وكأنهما لم يسمعاها ، ومضى كل شيء على ما يرام .. لقد تفوهت نينا بهذه العبارات فى الساعة الثامنة من مساء العاشر من يوليو ، وكان عمرها فى هذا الوقت عشر سنوات وشهرين .. كانت على يقين من أنها أخطأت .. كما كانت على ثقة – فى نفس الوقت – من أنها لم تخطئ .. ومضى وقت طويل قبل أن يتسلل النوم إلى عينيها ..

– ١٦ –

قالت إيفا : ها قد حان وقت قص الحشائش ، ودهان سور البيت ..

قالت مارتن : ولابد من التخلص من أوراق الشجر المتساقطة وإصلاح مقاعد الحديقة ..

قالت إيفا : إنها مهمات ضرورية فى إجازاتنا .. وهى متعتها الحقة !

كانت نينا قد استغرقت فى نومها فى المقعد الخلفى من السيارة ، وهى تنطلق إلى داخل الصيف !

- ١٧ -

الصـ صـ صـ صـ صـ يـ يـ يـ يـ يـ فـ فـ فـ فـ ف !

إنه الصيف يجيء بعد شتاء قاسٍ قارس ، يكسو الجليد الأرض ..

والإجازة تساوى لا مشاكل .. الإجازة تساوى البعد عن الروتين .. والإجازة تساوى السعادة .. فى المقعدين الأماميين جلس مارتن وإيفا يحشدان للصيف بكل ما يخطر على البال .. لكنهما لم يسألا نينا : أى صيف تريد ؟ ..

- ١٨ -

- ها قد وصلنا يانينا .. استيقظى

وتوقفت السيارة ..ها هو البيت الصيفى فى مكانه ، وعلى نفس حاله الذى تركوه عليه فى العام الماضى ، والعام الذى قبله ..لا شيء قد تغير .. نفس المقاعد التى يجب أن تطلى .. نفس الحديقة التى تحتاج إلى رعايتها .. ونفس الحشائش التى لابد وأن تقص ..

قالت إيفا لنينا : هيا .. عاونينى فى حمل الحقائب ..

كان مارتن قد دخل إلى البيت ، ونزلت نينا من السيارة ، ووقفت فى نفس الْمَمَر الذى كانت تقف فيه فى العام الماضى .. نظرت إليها وابتسمت ابتسامة الصيف ، نفس ابتسامة العام الماضى التى أطلت من عينيها .. وفجأة دوت صرخة من داخل البيت ..صرخة فيها كثير من الرعب والخوف ..

- ١٩ -

- مارتن ..

أسقطت إيفا من بين يديها ما حملته من حقائب ، وجرت إلى داخل البيت ومن ورائها نينا .. ثم وقفا عند الباب ، وصاحت إيفا :

- مارتن .. أين أنت !

جاءها الرد من غرفة النوم : أنا هنا

قفزا درجات السلم ، وتوقفت إيفا عند الباب ، قائلة ..

- مارتن ، ماذا ..

ثم توقفت عن الكلام ، وأطلقت صيحة قوية ، وسألت ..

- هل الحل كما هو عليه منذ دخلت ؟

قال مارتن فى صوت خفيض : نعم

دفعت نينا أمها من طريقها ودخلت إلى الغرفة ..

- ٢٠ -

يبدو أن شخصًا ما قد نام فى السرير الكبير ، فقد تكومت الملاءة من فوقه وعلى المنضدة التى عند حافة السرير كانت هناك عدة قطع من الشيكولاته ، قطعة منها أكل نصفها ، وانحنى مارتن ليلتقط زوجى حذاء رياضى .. قالت إيفا :

- ماذا جرى فى الدنيا ؟ !

هز مارتن رأسه وقال : لا أدرى

وتبادلا النظرات ، كل للآخر ، وتطلعا معًا ناحية نينا ، التى أحست بما يشعران به من اضطراب .. وهبت نسمة باردة على الغرفة ..لم يكونا قد لاحظا أنها تراقبهما لم تكن معهما فى هذه اللحظة ، كانت خارجها الآن ، وانتابتها رعدة خفيفة ..إن هذا يحدث للناس الآخرين ، وتقرأ عنه فى الصحف ، لكن لا يمكن أن يحدث لهم ..

- ٢١ -

قالت إيفا : هذا مستحيل ، لكن يبدو أن أحدًا كان يعيش فى بيتنا ..

هز مارتن رأسه ، وهو يتساءل : لكن من هو :

- إنى لم أر فى عمرى شيئًا كهذا .. لا أكاد أصدق عينى

قال مارتن :لابد من إبلاغ الشرطة .. هذا شىء كان يجب ألاَّ يحدث .. إنه بيتنا وليس من حق أحد أن يقيم فيه إلا بإذننا ..

قالت إيفا : ماذا لو .. لو أنهم مازالوا هنا ؟

ولم يقل أحد منهما شيئًا ، لفترة قصيرة ،لكنها امتلأت بوقع أقدام متلصصة وهمسات صغيرة ، ومضت نينا داخل الغرفة لتقف بين أبويها ..

قال مارتن : سأفتش البيت .. ابقيا هنا حتى أعود

كانت غرفة نينا فارغة .. واندفع مارتن بعنف يهبط السلالم كأنما يحاول أن يطارد شخصًا ما ، ويخيفه ، وسمعاه يجرى فى غرف الطابق الأسفل ثم هدأ وقع الأقدام ، وعاد مارتن ليعلن لا شىء .. ولا أحد ..

- ٢٢ -

كان الحذاء الكوتش يبدو فى لون أزرق ، فى وضعه على الأرض ، كان ضخمًا .. ومتجهًا ناحية نينا .. وعندما رفعه مارتن من مكانه ظهر وكأنه خاص بأقدام عملاق .. الآن بدأ يظهر حذاءً عاديًا ، بل « ودودا » .. هل هو « خطر » ؟ .. لم تكن نينا متأكدة ، وكان غريبًا أن يتجه إليها .. ما خطورته ؟ .. إنها تستطيع لو قطعت أربع خطوات أن تمسك به .. وفعلاً ، تقدمت نحوه .. ولمسته .. كان غريبًا ولزجًا ، ويكاد يلتصق بأصابعها .. كان فعلاً مثل أحذية الرياضيين ، لكن فيه شيئًا غريبًا ، مختلفًا ، هو الذى أخاف إيفا ومارتن .. كانت هناك كتابة باللون الأحمر على الفردة اليمنى ، وكانت غير واضحة ، لكن حروفها كونت بعد قليل كلمة واحدة : « زبلن » .

صاحت الأم بعصبية : نينا ، دعى هذا الحذاء الفظيع .. اتركيه .. ألقيه من يدك فورًا .

اضطربت نينا ، وأسقطت الحذاء ، كأنما كان من الممكن أن يعض يدها .. وتطلعت فى فزع إلى أمها ، كانت تحدق فيها بغضبٍ ، ودون أن تنطق بكلمة ..

- ٢٣ -

المنزل الصيفى يمتلىء بالنور ، خلال النهار كانت هناك الشمس ، وبالليل تتدفق إليه أضواء القمر .. غرفه بالنهار ذهبية ، أما فى الليالى غير القمرية ، فقد كانت الستائر تسدل على نوافذه ، وتسود الظلمة كافة جنبات البيت ..

– ٢٤ –

هناك مكان وحيد ، هادئ ، وآمن ، ومظلم فى هذا البيت .. اكتشفته نينا ، وأعلنت أنه خاص بها .. كان ما بين الطابق العلوى والسفلى .. مكان منعزل ، صالح لأن يجلس فيه المرء ويفكر ويحلم .. وكانت نينا خائفة من الظلام الكثيف ، لكن الظلام الخفيف تحت السلم كان يُشيع الأمن والطمأنينة .

– ٢٥ –

زبلن

كانت الكلمة تلمع فى الظلام من تحت السلم ، وتشع رائحة كالازهار مع نور الصباح ، ويبدو طعمها مثل آيس كريم فانيليا ..

– زبلن

إنها تبدو وكأنها كلمة جاءت من قصة خرافية .. كأنها « افتح يا سمسم » أو « ادرا كادبرا » أو « هوكس بوكس » .. كلمة تفتح أبواب الكنوز المدفونة فى الكهوف .. كنوز الحكايات الخيالية .. لكنها هنا « زبلن » موضوعة فوق حذاء رياضى لونه أزرق .. ولم تستطع نينا أن تهمس بالكلمة فى صوت عال .. ربما حملتها إلى جبال مهجورة مسحورة بعيدة .. الأفضل أن تكون حريصة ..

زبلن – تألقت الكلمة .. أغلقت نينا عينيها وتركت الكلمة تتسرب إلى أعماقها .. ما أغرب ما حدث .. شعرت أن الكلمة سقطت فى مكان ما بداخلها !

– ٢٦ –

– نينا .. أين أنت ؟

خرجت هذه الصيحة من قلب الظلام

– ها أنا

– لا تقلقينى إلى هذا الحد .. لقد ظننت أن شيئًا ما قد وقع لك .. تعالى وابقى معى إلى أن يعود مارتن من مركز الشرطة ..

وجلسا إلى مائدة المطبخ ..

وفى منتصف النهار كانت الشمس ساطعة ، والطيور والحشرات تحوم هنا وهناك ، وهبت ريح خفيفة .. كان كل شىء فى الخارج هادئًا ومطمئنًا .. أما داخل البيت فقد كانت هناك برودة تفرزها الجدران .. قالت نينا

– ألا نستطيع أن نخرج من هنا ؟

– لا ، من الأفضل أن نبقى هنا إلى أن يعود والدك

– ٢٧ –

لم يسرق شىء من البيت ، وما من شىء أصابه عطب ..

وما كان فى يد الشرطة أن تفعل شيئًا ، لأن أحدًا لا يعرف شيًا ولم ير شيئًا ..

– فلننتظر ونرى ..

نظرت إيفا إلى مارتن وقالت : من الممكن أن يحدث الكثير بينما نحن ننتظر !

كانت غاضبة ،وفاقدة لأعصابها .. قال مارتن بضيق :

– لا .. نحن نستطيع أن نحمى أنفسنا ضد هؤلاء الغرباء الذين يهددوننا .. ويجب أن نعتمد على أنفسنا فى ذلك ..

قالت إيفا : وماذا عن غرفة الحديقة ؟

– أنت صح ! .. نسينا أن نلقى عليها نظرة ..

وخرجا فى ضوء النهار ، وكانت النسمة حلوة ، والجو ممتع وجميل .

– ٢٨ –

دخل مارتن وإيفا غرفة الحديقة .. ولم يجدا نينا معهما بالخارج .. كانت قد مشت فى الحديقة ،ومضت إلى السور الواقع خلف البيت ، فلم يرياها ..

وتطلعت نينا إلى الممر الذى ينعطف ليمضى مظلمًا تحت الأشجار الكثيفة ..كان طويلاً طويلاً .. ووقفت ساكنة ساكتة .. وفجأة شعرت بشىء .. هناك من ينظر إليها ، ويحدق فيها .. أحست بالنظرات ثابتة ، تكاد تخترق ظهرها ، وتنفذ من عنقها ، فارتعشت .. وأدارت رأسها ببطء .. لا أحد ..لا شىء .. لكنها تحس بأن هناك من يرقبها ، وينظر إليها ، حاولت أن تواجه هذه النظرات بمثلها فى تحد ، غير أنها لم تستطع أن تعرف من أين تأتيها لترد عليها ، وتركت عينيها تستكشفان الحديقة .. حدقت فى الشجيرات الكثيفة الأغصان ، وحاولت أن تخترق ببصرها نباتات الزينة المزروعة فى الحديقة .. وهمست : اخرج .. لكن أحدا لم يخرج .. ووقفت وظهرها إلى السور ، تتطلع إلى الممر ، والأشجار الكثيفة

والظلام من تحتها ، وبدا كأنما مضى النهار وأقبل الليل ،وأصبحت الريح أقوى وأشد ، ورجعت الطيور إلى أعشاشها ، وفجأة لمحت كأنما شيئًا ما يزحف في الممر .. أحست إيفا بالخوف وكذلك مارتن .. يبدو أنه من الأفضل أن يكونا بالداخل .. إنه أكثر أمنًا .. إن الأعين التى تتطلع إليها تجعلها سجينة .. لابد أنها (عيون زبلن) .. كانت تعتقد أنها « صديقة » .. لكن هذه عيون شريرة ، قاسية .. إيفا ومارتن قالا كلامًا صحيحًا .. ليتهما قالا هذا قبل أن يزحف عليها هذا الشىء الأسود .. سمعت صوت مارتن ينادى ..

– نينا

هدأت نينا ، وأصبح فى مقدورها أن تحرك قدميها من جديد ، بل وابتسمت .. إن الشىء الأسود الذى زحف من خلفها فى الممر ، لم يكن سوى آثار بركة ماء صغيرة جففتها الشمس ..

قال مارتن فى غضب :

– نينا ، ها أنت !! ألم تقل لك ماما أن تبقى معنا ؟

لم تبد اهتمامًا كبيرًا بغضب أبيها ، واتجهت إليه ، وهى مازالت تشعر بالأعين التى تنظر إليها ، لكنها ما عادت توليها اهتمامًا ، إذ ها هو مارتن قد جاء لينقذها ..

– ٢٩ –

هل نبقى أم نغادر المكان ؟

إن بيتنا تكتنفه المخاطر ، وتعشش فيه الأسرار على هذه الصورة ، ويجتاحه الخوف والذعر بهذه الشكل ، لا تطيب الإقامة فيه ..

– من الأفضل من أجل نينا ..

قال مارتن : لكن هذا البيت بيتنا . نحن نملكه .هل نسمح لهؤلاء المقتحمين أن يرهبونا ؟ يجب أن نقف فى مواجهتهم ، وأن ندافع عن أنفسنا ، ولن نستسلم .. أى عالم هذا الذى نعيش فيه إذا أفزعتنا هذه الأمور الوضيعة ؟ إننى سأحميكما بحياتى إذا لزم الأمر .. إنى أرى أن نبقى ..

جلست إيفا ونينا على الكنبة .. وهزت إيفا رأسها بالموافقة ، وكذلك نينا ..

– ٣٠ –

لم يكن ذلك لأن مارتن كان شجاعًا .. وليس لأنه أعلن أنه سيحميهما .. ولا لأنه تكلم فى ثقة واعتداد .. نعم ، كلها مجتمعة كانت تدعو للبقاء .. غير أن نينا كانت تريد أن تبقى لسبب أقوى .. إنها تلك الكلمة ..

– زبلن

– ٣١ –

قام مارتن بتغيير كل الأقفال فى البيت ، واطمأن إلى أن جميع النوافذ سليمة ، ومغلقة بشكل جيد ، وكذلك الأبواب .. وفحصها مرة أخرى ليتأكد من ذلك ، ووعد بأن يظل يقظًا طيلة الليل وترك نور الصالة مضاء وتركت الأبواب بين غرفتى النوم مفتوحة .. كان من الأفضل ان يناموا والنوافذ مغلقة ..

وليأت الليل ..

فجأة ، صحت نينا من النوم ، سمعت صوت صغير يأتيها من الحديقة .. وقفز مارتن إلى جوارها بأسرع ما يمكن ..

سألت إيفا : ماذا هنالك ؟ وكررت نينا نفس السؤال ..

أجاب مارتن :لا أدرى .. قد يكون حيوانًا ما ..

قالت إيفا : لا .. إنه صاحب الحذاء .. ربما اقتحم علينا البيت ليسترده وليسترجع قطع الشيكولاته ..

كان صوتها قد ارتفع ، وبدأ مختلفًا ، إلى أن تلاشى ، وأحست نينا أن صوت أمها قد جعل الأشباح خارج البيت أكثر سوارًا وانتشارًا ..

قالت أيفا : إنه هو .. وفقدت صوتها .

ولم تفكر نينا إذا ما كان هو ، أو هى ، أو هم .. وعندما استعادت إيفا صوتها .. صاحت :

- يجب أن نصنع شيئًا يا مارتن !

قال مارتن : لست أرى شيئًا ..

خطر ببال نينا أنه « خفى » .. إن هناك شيئًا ما فى الحديقة ، ومن الممكن أن يتسلل عبر الشقوق الموجودة فى الجدران ، ويصبح داخل البيت ..

ابتعد مارتن عن النافذة ، وقال :

- نينا ، من الأفضل أن تأتى لتنامى معنا بقية الليلة ..

وعادت إلى إيفا ، ووقفت نينا وذهبت إلى النافذة ..

- ٣٣ -

كانت الحديقه رمادية ، وكل شيء فيها يهتز ويتأرجح ، وقد وقفت الأزهار .. بلا لون ، وبدت قمم الأشجار أكثر سودا ومن روائها السماء بيضاء فضية .. ولمحت شبحًا يبتعد عن الشجرة الكبيرة ..إنها من نوع القبقب .. أو « مابل » .. لم تشعر بالخوف ، ولم تكن عصبية ، وبدأ كأنما كانت تتوقع أن ترى هذا الشيء .. بقى الشبح ثابتًا بعض الوقت .. هو شيء أبيض .. ورفع وجه نفسه نحو النافذة ، وتأكدت من أن النظرات التى كانت تصوب إليها خلال النهار وكانت حقيقة ، ولوحت يد إليها .. نعم ، إليها .. ثم تحرك الشبح ، وأصبح جزءا من الشجيرات الصغيرة ..

نينا ، هل ستأتين ؟

نعم ..

وأحست بنفسها خفيفة وغريبة .. كانت كأنما تهتز وتتأرجح هى الأخرى – مثلها مثل الحديقة والأشجار والشبح فى ظلام الليل .. لقد أعلن (شبح زبلن) عن نفسه .. إنه يريد شيئًا منها .. كانت خائفة ، ولم تكن خائفة ! .. ونامت ما بين مارتن وإيفا ، وبعد أن استغرقا فى النوم ، نظرت إلى الظلام الشديد وشعاع صغير من النور ينبثق بداخلها ..

- ٣٤ -

فى صباح اليوم التالى لم تكن هناك آثار أقدام فى الحديقة . لا شيء هنالك ، كأنما لم يكن هناك أحد ، وكأنما ذاب الشبح فى ظلام الليل .. قالت إيفا ومارتن ..

– غريبة

- ٣٥ -

نظر ثلاثتهم إلى الحذاء الكبير .. غير أن نينا رأت أنه « صغير » ..لقد سمع ثلاثتهم الصفير ، لكن نينا رأت الشبح الذى أطلق هذا الصفير ..إن ثلاثتهم قد مروا بنفس التجربة ، ومع ذلك اختلف أثرها ، إذ أن نينا رأت أكثر مما رأت إيفا وما رأى مارتن ..

- ٣٦ -

منتصف النهار ، والأمور على ما هى عليه ..

مارتن يطلى مقاعد الحديقة ، وسط الحشائش الخضراء ، وكانت إيفا تنزع الحشائش من احواض الزهور قرب جدران البيت ، وراحت نينا تتجول دون أن تصنع شيئًا ، لكنها كانت طبيعية جدًّا ،لم يكن هناك من تلعب معه وليس لديها ما تعمله .. كان ذلك هو المعتاد .. لكنها سمعت صوتًا صادرًا عن الشجرة الكبيرة ، جعلها تتطلع إلى أعلى .. فى البداية كانت تريد أن تنادى أباها وأمها ، لكن صوتها ضاع منها ، وحاولت أن تبدو وكأنما لم يحدث شىء وتظاهرت بأنها لم تر قدمًا عاديةً تتدلى من بين فروع الشجرة .. تظاهرت بأنها لم تلمح هذه القدم البرونزية التى لوحتها أشعة الشمس ، والتى اختفت بين الأوراق الخضراء ، كما تظاهرت بأنها ما رأت ذلك القميص الأحمر الذى تحرك ما بين الأغصان ..وقفت هنالك متظاهرة بأنها تنظر إلى شجرة عادية جدًّا ، ليس عليها قدم ، أو ساق ، أو قميص أحمر .. لكن القدم والساق والقميص الأحمر كانت موجودة ، حدقت فى القدم ، إنها تعرفها ، كانت ترى (أقدام زبلن) .. لكن السؤال : ماذا تعمل ؟ .. نظرت إلى أمها وهى تنحنى فوق حوض

الزهور ،ونظرت إلى أبيها وهو يميل على سور الحديقة .. كانا كذلك منذ بعض الوقت ، وكأنما كل شيء على ما يرام وفى أمان وسلام .. دون أن يشكا قط فى أن الأمور قد تغيرت تمامًا فى ثانية واحدة .. وجاءها صوت من فوق الشجرة !

- ٣٧ -

- أخيرًا .. لقد ظننت أنك لن تأتى مطلقًا ..

نظرت إلى أعلى فى رعب ، ونظرت فى فزع إلى تحت ..

- أعرف أنك رأيتنى ، لكننى رأيتك قبلها

لم تقل نينا شيئًا .. لم تكن نينا هى التى تقف تحت الشجرة ..لم تكن نينا هى التى يوجه إليها الحديث ..

- كنت أجلس أعلى الشجرة عندما وصلتم أمس ..

لم تفتح نينا فمها بكلمة .. وكان مارتن يطلى السور وإيفا تقتلع الحشائش ..

وجاءتها من فوق الشجرة تنهيدة ، ثم سؤال : هل تستطيعين الكلام ؟

وهز شخص ما رأسه .. لابد وأن تكون نينا هى التى فعلت ذلك ..

- كنت أخاف أن تكونى بكماء صماء ، بلا صوت على الإطلاق .. هل يمكن أن تقولى نعم ..

- نعم ..

هكذا ردت نينا فى صوت غريب ، قادم من بعيد ، سمعته نينا ..

– ألا تستطيعين أن تقولى شيئًا آخر ؟

قال الصوت البعيد الذى لابد أن يكون صوت تيتا ..

– ماذا تصنع عندك فوق .. ؟

قال الصوت الغريب القادم من بعيد فى غضب ..

– شجرتكم ؟ هل كتب عليها اسمكم ؟ !

– إنها تنمو فى حديقتنا ، لذا فهى شجرتنا ..ماذا تفعل عندك ؟

– اجلس ..

– لماذا ؟ !

– لأنها شجرة لطيفة تصلح للجلوس عليها .. جربت كل الأشجار ، وجدت هذه أفضلها .. كان مارتن يطلى السور ، وإيفا تجتث الحشائش ..إما أن يكونا فى حلم أو هى التى تحلم ..

– هل أنت صاحب الحذاء الكوتش الأزرق ؟

– نعم ..

– لماذا هو هناك ؟

– لأننى أجلس هنا بدونه ..

– لكن ما الذى يفعله هذا الحذاء فى بيتنا ؟

– لا شيء ..

قالت نينا فى صوتها الطبيعى وهى تهز كتفيها ..

– نعم ، لكنه هناك ..

كانت قد اقتربت منه كثيرًا ، وهى تتساءل : هل أنا فى حلم أم يقظة ؟ .. مارتن يطلى ، وإيفا تقلع الحشائش .. قال الصوت الذى بدا حقيقيًّا ..

— نعم ، نعم .. هو هناك ..

شعرت نينا بالريح تهب على ذراعيها وساقيها ، وأحست أن الشمس تحرق جلدها ، وسمعت الطير والحشرات من حولها .. إذن ، هى الحقيقة ، وهو الواقع .. كان صوتها مازال بعيدًا ، أما صوته هو فكان قريبًا جدًّا ، حقيقيًّا ، وأيضًا مارتن ومقاعد الحديقة ، وكذلك إيفا والحشائش .. أيكون الأمر حُلْمًا ، ومجرد نزهة فى الحديقة ؟ .. فى الواقع كان يجب أن تخاف وعليها أن تنادى مارتن وإيفا ، لكنها لم تكن خائفة بالضبط ، ولم تناد مارتن وإيفا .. وقال الصوت القريب ..

— هذا هو السبب فى أننى انتظرتك طويلاً ..

قالت نينا بصوتها القادم من بعيد : لماذا ؟

— لكى تأتى بالحذاء ..أقدامى كادت تتجمد خلال الليل

— هل قضيت ليلتك فوق الشجرة ؟

إنه فى الأحلام فحسب ينام الناس فوق الأشجار .. — إنها شجرة جميلة لطيفة ، وإذا شئت أن تعرفى فإن فيها سريرًا ، ومنضدة ، وكل ما أحتاج إليه موجود هنا ما عدا الحذاء ..

— ولماذا لا تنام فى بيتك ؟

— ربما لأنه ليس لى سرير .. وقد لا يكون لى بيت .. ألم تفكرى فى هذا ؟

- لا .. وأنت لم تجب على سؤالى ..

- ليس فى مقدورى أن أقول لك شيئًا ..

- لم لا ؟

كان من السهل عليه أن يجيب .. سمعت نينا نفسها ترد .. غير أنها لم تكن تعرف ما ستقوله ، إلى أن جاءها صوته يقول ..

- لا أستطيع أن أتحدث فى هذه الأمور بدون الحذاء .. أريده فى قدمى ..

- ماذا لو قلت لك إنه ليس فى مقدورى أن آتيك به ؟

- حذائى لن يعضك ..

- أعرف ذلك ..

- إنه حذاء لطيف بحق .. فقط ، اربتى عليه وسيأتى معك بدون أية مشكلة ..

- ليس عندى إذن بأن أحمله إليك ..

- عندك الإذن منى أنا ..

- ليس عندى إذن من ماما وبابا ..

نظر إليها من بين أغصان الشجرة .. إنها نفس النظرات التى أحست بها فى الليلة الماضية ..

قال : هذا الحذاء ، لمن ؟ من يملكه ؟

- إنه لك أنت ..

- حسنًا .. إذن ، أبوك وأمك ليس من حقهما الاحتفاظ به ؟

- لا أجرؤ .. لا أستطيع !

- قال لها : ألا يمكنك أن تحاولى ؟

فجأة اعتدلت إيفا فى مكانها ، ونظرت إلى نينا ، قائلة :ماذا تفعلين عندك ؟

ردت نينا :لا شىء ..

إذن ، الأمر واقع .. واقع مثل كل شىء حولها .. أضافت الأم :

- يبدو أنك تتحدثين إلى الشجرة .. لماذا لا تجدين لنفسك شيئًا تصنعينه ؟

- سأفعل يا أمى ..

همس صوت من أعلى الشجرة : لماذا لا تحاولين ؟ .. هو أمر ليس بخطير .. أنا متأكد من ذلك .. وإذا لم تأت به ،فإننى لا أعرف إذا كنت سأتحدث إليك أم لا .. تذكرى هذا ..

ومضت فى رأسها فكرة .. شعاع ضوء صغير .. ومرت بها رعشة بسيطة ..استدارت نينا وسارت عبر الحشائش ..

ناداها مارتن قائلاً : إلى أين أنت ذاهبة به .. وصل إليها صوته وكأنه صدى ..

- سأدخل للحظة قصيرة ..

قالت إيفا فيما يبدو : لماذا ؟

- سأحضر كتابًا ..

ومع كل خطوة ، راحت تغادر الحقيقة والحديقة ، تاركة أمها وأباها ..

- ٣٨ -

كان البيت الصيفى بيتًا للأحلام ..فتحت نينا باب الأحلام ، ودخلت إلى الحلم .. سبحت فى الهواء عبر درجات السلم ، وتحركت قدماها دون أن تلمس الأرض .. أذرع بطيئة ، وأقدام أيضًا بطيئة .. وانفتح باب غرفة النوم من ذات نفسه ، كأنما كان ينتظر قدومها .. كذلك كان الحذاء قابعًا ينتظرها فى ضوء أزرق ملأ الغرفة كلها .. وأصبح لها أذرع زرقاء وأرجل زرقاء كذلك .. كان الحذاء يشير إليها ويتجه نحوها .. أمامه .. كان يلمح ويشع مثل كلمة (زبلن) نفسها ، ذاتها ..كانت الحروف الحمراء واضحة الآن .. وانقلبت يداها بيضاء ثلجية ..وفى بطء شديد امتدت يداها أو امتدا من ذاتهما نحو الحذاء ، كأنما يتحركان فى الماء .. ولمست الحذاء .. فى البداية كان جافًا وباردًا ، لكن اللون الأزرق تكاثف ، وأصبح الحذاء ناعمًا ، كالحلم .. وفى بطء شديد أمسكت به ، ووضعته تحت قميصها .. وخرجت من الغرفة ، إلى حجرتها .. وهبطت السلم بكومة من الكتب ،ثم انطلقت إلى ضوء الشمس خارجة من الحلم !

- ٣٩ -

سألتها أمها فى دهشة : هل أتيت معك بكل كتبك ؟ !

قالت فى صوت غير واضح : نعم .. لا أعرف أيها أريد أن أقرأ ..

وخطت بقدميها فوق الحشائش ،ومن فوق رأسها أغصان الشجر ، ووقفت تحت الشجرة الكبيرة .. شجرة المايبل .. ووضعت كتبها .. وعادت إيفا تجتث الحشائش ، ومازال مارتن منهمكا فى طلاء السور .. وأخرجت

نينا الحذاء ومدت به يديها من بين الأغصان ، وأخذه الولد .. ولمست يده يدها .. إذن هى لا تحلم .. نضح جبينها بالعرق ، وكذلك يداها ، وشعرت بألم فى معدتها .. وأحست بحاجة شديدة إلى أن تجلس .. وهمس الصوت من فوق الشجرة ..

– ماذا بك ؟

لم تجب . نظرت إلى أمها وأبيها ، مازالا يعملان ، وكأنما لا شىء يجرى ويحدث .. هما لا يشكان قط فى أن هناك ولدًا جالسًا فوق الشجرة .. ولا يتصوران قط أنها تقوم بشىء لا يعرفانه .. كانت نينا لا تدرى إذا ما كان قد أذن لها بما فعلته .. لقد قامت به دون أن تسأل الإذن لها بذلك .. كان الألم يشتد .. إن ما فعلته شبيه بالسرقة .. شبيه بالكذب .. وهما لا يعلمان عنه شيئًا .. وقامت وجرت عبر الحشائش الخضراء ، ومن ورائها صوتهما ..

– نينا ..

لكنها لم تتوقف ، وانهمرت الدموع من عينيها .. إنها مريضة ..هناك وراء الشجيرات ...

– ٤٠ –

نينا ، ماذا بك ..

وانحنى عليها ظلان .. هناك يد تمر من فوق رأسها وشعرها ، وقد جف العرق من فوق جبينها ..

– هل أنت مريضة ؟

لم تستطع أن تجيب .. اختنق حلقها بالشهقات المتوالية .. سأل مارتن :

– ماذا بك يا نينا ؟ ..إيفا ، ماذا جرى ؟

– لا أدرى .. نينا ، نينا ..

راحت تبكى وتبكى .. وقد وقفا ينظران ، عاجزين ، يرقبانها .. قالت إيفا ..

– لا أدرى .. لقد تعودت على أن تصارحنا بكل شىء ..

وامتدت الأيدى من جديد .. أيدى حانية ناعمة تربت وتهدئ ، واهتز جسمها مع لمسات الأصابع .. كأنما توجعها وتؤلمها ..

– ٤١ –

كان كل شىء يبدو مستحيلاً ..

– لماذا تبكين يا نينا ؟

– لابد وأن يكون هناك سبب ما .

– لا يمكن أن تستمرى فى البكاء بلا مبرر ..

– هل أصبت نفسك بشىء ؟ هل ارتطمت بشىء ؟

– نينا ، نحن نريد أن نساعدك

ولم تستجب ، ولم تفد كل هذه الكلمات .. إنها لم تفتح فمها بكلمة ..

– نينا ، أنت تعرفين أننا نثق فيك .. نحن قلقان عليك ..

– هل انت خائفة لأن شخصًا ما تسلل إلى بيتنا ؟

هزت رأسها ...

– نينا ، يجب ألا تخفى عنا شيئًا .. إننا لا نفكر إلا فيما يفيدك ..

ثم سكتا .. لم يقولا شيئًا آخر ..

سكت الثلاثة .. نينا تنظر إلى الأرض ، وإيفا ومارتن يرقبانها فى لهفة ويتبادلان النظرات فى خوف .. قالت إيفا وهى تتنهد ..

– أنا غير قادرة على أن أفهم شيئًا ..

وهز مارتن رأسه ..

– ٤٢ –

وأخيرًا حل المساء ..

الضوء الأزرق بالخارج ، والنور الساطع بالداخل .. وحان وقت النوم أغلقت الأبواب والنوافذ .. وفجأة صرخت إيفا ..

– الحذاء اختفى ..

صاح مارتن : ماذ ؟ ! لا يمكن أن أصدق هذا ..

ورفض كلاهما أن يصدق ما يرى ..

قال مارتن : إن ذلك مستحيل ..الحذاء لا يمكن أن يمشى بنفسه !

قالت إيفا : إن أحدًا لم يدخل هنا ، وقد كنا قرب الباب طيلة اليوم .. لابد وأن هناك شبحًا هنا !

قال مارتن :لا وجود لشىء اسمه الأشباح ..

قالت إيفا بغضب : إذن كيف تفسر اختفاء الحذاء ؟

قال مارتن فى رقة : مسكينة نينا .. من الأفضل ألا نقول لها شيئًا .. ستذعر ..

قالت إيفا بنفس الرقة : معك حق ..

رقدت نينا بعيدًا فى غرفتها وسمعتهما يتحدثان فى صوت منخفض ووصل إلى أذنيها ما يتحدثان عنه ، ومضى إليها مارتن ، وقال ..

– من الأفضل أن تنامى معنا الليلة ، كذلكِ ..

وحملها بين يديه ، وهى فى غطائها ، فأخفت نفسها فيه وهى ترتعد ..

قالت إيفا : يا للطفلة المسكينة ، لقد عادت إلى البكاء مرة أخرى ..

– البكاء ؟ !

– لا .. إن هناك احتقانًا فى حنجرتها لا أكثر ولا أقل ، قد تكون ضحكات مختنقة .. وفجأة تنبهت واستيقظت .. وهنا صاح مارتن ..

– لقد فاض بى الكيل .. وذهب الأمر إلى أبعد مما أحتمل ..

وألقى بنفسه خارج الفراش ، وجرى يقفز درجات السلم وهو فى البيجامة وهو يقول :

– إننى لن أقبل الرضوخ لما يجرى ..

جرت إيفا ونينا إلى غرفة نينا ، وتطلعا من النافذة ، لكنهما لم يريا ذلك الذى أطلق الصفير ، واندفع مارتن إلى خارج البيت ، كأنما هو قنبلة تنفجر وسط الهدوء الشامل الذى يلف المكان ، وراح يجرى فى كل أرجاء الحديقة ، بين الأشجار ومن حولها ، وفى الشجيرات ، وبجانبها من كل ناحية ، وصرخ يقول :

– أين أنت ؟ .. اخرج .. إنى أعرف أنك هنا ..

وصاح رجل فى الناحية المقابلة من الشارع : ماذا يجرى ؟ ماذا هنالك ؟

وقالت امرأة من الجيران ، هل حدث شىء سيىء ؟

توقف مارتن وهلة قصيرة ، كأنما تنبه لهذا الذى يفعله ، وجرى من جديد إلى داخل البيت قبل أن يراه أحد .. وصاحت المرأة مرة أخرى ..

– هل من أحد هنا ؟هل وقع شىء ؟ ؟

ولم تتلق ردًّا ..

– ٤٣ –

قال مارتن حين دخل البيت وارتقى السلم ..

– ما من شىء يستحق الضحك ..

قالت إيفا فى جدية شديدة : إننا لم نضحك ..

قال مارتن : إننى فعلت ذلك من أجلكما ؟ ؟

– لقد كنت رائعًا بحق ، وشجاعًا إذا انطلقت وسط هذا الظلام فى جسارة ..

ودخلوا الفراش من جديد ...

– نينا !

كانت تنظر إلى الخارج باحثة عن شبح فى الحديقة ، يسبح وسط هذه الصفحة الرمادية ..

– نينا ..

كانت تبحث عن علامة .. عن موجة لكن الحديقة كانت هادئة تمامًا ..

– نينا ، عما تبحثين ؟ ماذا تنتظرين ؟ تعالى ..

– حاضر ..

ونظرة أخيرة إلى الليل ، ولا شيء بين الشجيرات والنباتات التى ارتفعت قامتها .

– ٤٤ –

صباح اليوم التالى ..

جميل أن تستيقظ .. جميل أن تنهض وتقوم .. فى البداية ظلت نينا مازالت فى الفراش ..ثم ظهرت الغرفة فى الصورة .. والنافذة .. وضياء الشمس .. فى الخارج راحت الأفكار تسبح فى الصيف ، من فوق أحواض الزهور ، وفوق الحشائش الخضراء ، ومن فوق أغصان الشجرة الكبيرة .. شجرة المابيل ، أو القبقب .. جلست نينا وهى تشهق ..

– أمس .. ؟ !!

ألم يحدث ذلك منذ أزمان بعيدة ؟ !

كانت تتمنى لو أنها حدثت قبل آلاف الملايين من السنين .. وذلك لأنه ، ساعتها ، لن تكون هى نينا التى أخذت الحذاء !

– ٤٥ –

أن تأخذ شيئا بدون إذن ، معناه « السرقة »

نينا تعرف ذلك جيدًا .. لكن الحذاء ليس ملكًا لهم .. وقد كذبت لأنها لم تذكر الأمر لأحد .. هى تعلم هذا عن يقين .. ولكن الأمر سيان ، لأنها تعتقد أنها لم تكذب ..

كانت المسألة صعبة ،ومعقدة !

– ٤٦ –

قال رجل الشرطة ..

– الحقيقة أنها حكاية غريبة ، ولكن ليس بيدنا ما نفعله ..

قالت إيفا : إن الأمر يثير أعصابنا ..

قال مارتن : والمسألة أصعب وأسوأ بالنسبة لبنتنا : نينا ..

ونظر إليها ثلاثتهم ، وشعرت نينا أن وجهها يشتعل بالحمرة ..

قال مارتن : يمكنك أن تمضى إلى الخارج قليلاً يا نينا .. إنها ليست مشكلتك .. ولكن لا تذهبى بعيدًا ، حتى نستطيع أن نراك من النافذة ..

– ٤٧ –

لم تكن تريد أن تذهب مباشرة إلى الشجرة الكبيرة

ولكنها ذهبت إليها

لم تكن تريد أن تجلس تحتها ..

ومع ذلك جلست على الحشيش تحتها مباشرة
ولم تكن ترغب فى أن تنظر إلى فوق

ورغم هذا نظرت إلى فوق .. إلى أوراق الشجرة .. لم يأتها أى صوت من بين الأغصان العليا .. ولا طائر .. لم تكن لديها الرغبة فى أن تظل جالسة ، وبقيت جالسة ! وجاءها صوته فجأة :

– ما كنت أظن أنك سترجعين ..

قفزت نينا من مكانها ، هى – حقيقة – لم تكن خائفة .. ونظرت إلى أعلى .. هناك كان الحذاء الأزرق يلمع ، والساق المدلاة ، والقميص الأحمر .. لم ترد على كلماته .. قال ..

– أبوك سريع الحركة ، قادر على الجرى كأنه الريح ..

ولم تعقب .. ونزل إلى غصن أقرب ، وسألها ..

– لماذا جريت بعيدًا بالأمس ؟

ولم تجب
– هل أبلغت أباك وأمك بأمرى ؟
وهزت رأسها أن : لا .. سألها :
– لماذا لم تخبريهما بشىء عنى ؟ !
هزت رأسها من جديد .. الحقيقة أنها لا تعرف سببًا لذلك

ثم أصبح صوته أكثر مرحًا ..
– إننى أرجو أن أستمتع بوجودى هنا ..

– ماذا تقصد ؟

– لقد فكرت فى أن باستطاعتى أن أستقر هنا بعض الوقت ..

– أين !!

– فى بيتكم .. فى مقدورك أن تعطينى بعض الطعام ، ومأوى .. أنا الآن فى حاجة شديدة إلى الأكل .. أريد طعامًا كثيرًا .. شرائح من الخبز ، والخس ، والمربى ، واللحم والجبن .. لا أريد جبن الماعز .. إنهم يعطوننى إياه للغذاء فى المدرسة وأنا الآن فى إجازة منه ومنها !

– سأعطيك هذا إذا وعدت بأن تقول لى : ماذا تفعل هنا ؟

– لا أستطيع ذلك ..

– إذن ، فلن آتيك بأى طعام ..

– إنك لا يمكن أن تتركينى أموت جوعًا .

– بل ، من الممكن .. أستطيع ذلك !

شعرت نينا بالثقة الزائدة ، هى تستطيع أن تصنع قراراتها بنفسها سألته :

– هل ستفسر لى كل شىء أم لا ؟

– لا أظن ذلك ..

– إذن ، فلن آتيك بأى طعام ..

– هذا رائع . عظيم . إنى بذلك أستطيع أن أختفى ، وبذلك تستطيعين أن تقولى لنفسك إن الأمر كان مجرد حلم ..

ثم اختفى داخل الشجرة ...

- ٤٩ -

سمعت نينا نفسها تصيح :لا .. انتظر ..

واضطربت .. كانت تحاول أن تمسك بأنفاسها ..

ربما ، لا تكون هى الأقوى .. بعد كل ذلك ..

وعادت الساق تتدلى .. ولمع الحذاء الأزرق من فوقها ..

– هل تأتين لى بالطعام ، الآن ؟

هزت نينا رأسها ، أى نعم ، ثم وقفت

- ٥٠ -

لو أنها فقط تستطيع أن تفهم ..

لقد أصبحت ترتعد خوفًا ، منذ اختفت الساق والحذاء .. حينما سحب زبلن قدمه إلى ما بين الأغصان ، كأنما لن يعود للأبد .. وأحست كأنها على وشك أن تفقد صديقًا عزيزًا ..

- ٥١ -

مضت نينا عبر المروج الخضراء ، وسارت فى الممر إلى أن وصلت إلى السلم ، ودخلت المطبخ .. كان الأمس كأنه حلم .. واليوم أضحى حقيقة واقعة .. فتحت نينا باب الثلاجة بنفسها ، وهى بذاتها التى أخذت اللحم والبطاطس المتبقية من طعام الأمس ، وهى نينا التى قطعت الخبز ، ووضعت كل هذا فى كيس من البلاستيك ، وقد صنعت كل ذلك دون أن تشعر بأى خوف .. وخطت إلى الصالة .. وجاءها صوت أبيها : نينا ..

فجأة أحست بخطورة الموقف .. يجب ألا يراها .. مضت إلى الشرفة .. فتحت بابها .. من حسن الحظ أنه لم يحدث صوتًا .. ومرة أخرى : نينا !

إنها « تسرق » .. إنها تسرق .. إنها ... وتذكرت وجه أبيها مارتن وقد علاه التجهم .. حدث ذلك من وقت بعيد .. كان قد دخل ليجد فى يدها نقودًا ..لقد أخذتها بدون إذن .. نينا .. ابنتى .. لا تفعلى مثل هذا الشىء .. ولكن هاهى قد فعلته .. ألست ابنتى ؟

ألست لى وأنا لك ؟ .. نعم ، هما لبعضهما ، ولكن .. وانهمرت الدموع من عينيها ، ونضح العرق على وجهها وجبهتها ويديها ..

وجرت فوق الحشيش الأخضر .. إلى تحت الشجرة ، ورفعت يديها بالطعام .. ومرة أخرى كما يحدث فى الأحلام ، امتدت يد إلى أسفل ، واختفى كيس الطعام بين الأغصان وأوراق الشجرة ..

نينا ..

والتفتت إلى الوراء ، لتجد أباها يقف فى الشرفة متطلعا إليها ..

– لماذا أنت عندك ؟

لم تجب على سؤال أبيها .. هو كبير ، وهى صغيرة ..

كان يكبر ، وكانت هى تصغر .. كان مارتن يريد أن يقرأ أفكارها ، ولم تستطع أن تبادله النظر ، واصطبغ وجهها بالحمرة ، وتوهج بالحرارة وهو يحدق فيها ..

– ماذا هنالك يانينا ؟

هزت رأسها .. ظل يحدق فيها منتظرًا .. بعيدًا ، بعيدًا جدًّا .. مثل عملاق ، ما كانت لتستطيع أن تهرب منه ، أو من نظراته .

- ٥٢ -

– نينا من فضلك ، أنت بنت ممتازة ..

نينا ليست ممتازة ، كما يظن ..

– أنت تقلقيننا فوق ما تتصورين ..

وهى ليست سيئة ، أيضًا ..

كانت إيفا ، ومارتن جادين .. إن ابتسامة واحدة لم تطف بوجهيهما منذ يومين .. ماذا جرى لهما ؟ وماذا عن السعادة التى كانا يحسانها ؟

- ٥٣ -

فجأة ، كأنما تحول الصيف إلى صيفين ..

الصيف الهادئ ، الطبيعى ، الذى يقضيانه : إيفا ومارتن .. صيف يمتلئ بأشياء كثيرة ، مثل طلاء السور والمقاعد ، واجتثات الحشائش وإصلاح ما تخرب .. والصيف الآخر ، الذى احتشد بحذاء زبلن .. إنهما لا يستطيعان أن يجتثا هذا الحذاء ، ولا إصلاح ذلك الصفير الذى ينطلق فى منتصف الليل ، ولا يمكنهما طلاء شبح زبلن ..

صيف واحد ، من أجل إيفا ومارتن

وصيف ثان ، يمثل شيئًا مطلوبًا من نينا ..

- ٥٤ -

نادت إيفا زوجها صارخة : مارتن .. تعال هنا !

مضى إليها .. وهى تقف أمام الثلاجة ..

– ماذا هنالك يا إيفا ؟

لم تجب ،وتركته ينظر إلى ما بداخل الثلاجة ، سألها ..

– أين اللحوم والبطاطس المتبقية من طعام الأمس ؟

– لا أعرف .. لم ألمسها ..

– ولا أنا ..

وتبادلا النظرات .. قالت إيفا

– إنه يجيء ويذهب كما يحلو له ..

رد مارتن : كيف يمكنه أن يفعل ذلك دون أن نراه ؟

لم يكن فى مقدور أحدهما أن يجيب على هذا السؤال ..

– ٥٥ –

فجأة علم الجميع بالأمر .. انتشرت الأخبار فى كل مكان .. كان الناس يتوقفون ويتبادلون الكلام .. هو مكان صغير يمكن للأنباء أن تتنقل فيه بسرعة .. علم بالأمر شخص واحد ، ونقله إلى الثانى .. وسمعه الثالث من الأول ، وعرفه الرابع من الثانى .. وطارت الأخبار .. ونمت .. وأصبحت كبيرة .. وأكبر .. وأكبر .. تناقلتها الأفواه ، وعادت فى دائرة مفرغة إلى أول من أذاعها ، وقد أصبحت أضخم من أن يصدقها ، أو يعرف أنه مصدرها ، وذهبت إلى أماكن أبعد ، تقولها الأفواه ، وتلتقطعها الآذان ، لتتردد من جديد .. وما من أحد قد سمع من قبل بمثل هذا الذى حدث .. لا أحد يستطيع أن يفهم حقيقة ما جرى ..لكن ، فجأة ، قيل أن كثيرين قد سمعوا بأشياء من هذا القبيل ، وقيل إن هناك كثيرين قد فهموا كل

شىء ، وجاء الجيران فى البداية إلى إيفا ومارتن ، وحكيا لهما ما حدث ، واختلفت الأقوال وتعددت الروايات من وقت لآخر .. البعض سمع فى الليلة الماضية نحيبًا صادرًا من الحديقة ..كثيرون سمعوه .. وهناك آخرون شاهدوا من نوافذهم شخصًا ما يكمن لهم فى الخارج .. وتحدث البعض عن سرقات ، وعمليات إرهابية .. ثم جاء (جوهانز) من (موين) يقول إن دراجته قد سرقت .. ثم أقبلت (جردا) من (ليوتد) تقول إن شخصًا تسلل إلى مخزن المؤونة وإنه استحوز على كمية كبيرة من الخبز والمربى .. وأعلن (ستيفن) أن شخصا قد دخل صالة بيته ، وأخذ معطفا للمطر يعتز به كثيرًا ..

الناس يتحدثون .. ويتحدثون .. ويتحدثون ..

وكان الخوف يختفى وراء كل هذا ..

وبعد ساعات كانت كل الأحياء المجاورة قد علمت بالأشياء المرعبة التى تحدث ..

– ٥٦ –

كانت الشرطة يائسة .. وفجأة علم أناس كثيرون بأشياء جديدة .. استطاعت إيفا ومارتن أن يستردا أنفاسهما ، واضطربت نينا ، وشعرت بأن هناك خطأ ما ، رغم أنها لم تفهم شيئًا ، كان كل الناس يتحدثون عن الحذاء وعن هذا المقتحم الغامض ، لكنها لم تكن ترى فى الحذاء ذكرى سيئة ، أو مؤلمة ، كما أنها لم تعتبر ذلك الصفير أمرا مفزعًا إلى الحد الذى يتصورونه وبدا كأنما يتحدثون عن شىء لا علاقة لها به .. كان الكبار يتحدثون عن سرقات ، واقتحامات ، كأنهم هم الذين يعرفون كل شىء ،

وكأنما حكايتهم هى الوحيدة الصحيحة الصادقة .. وهذا خطأ بالتأكيد .. ويجب أن يدركوا هذا ..

والسؤال : هل يمكن للولد الذى فوق الشجرة أن يكون هو اللص ؟

إنهم يتحدثون ، ويتحدثون .. إن الكبار يعرفون أكثر .. وربما كانوا يعرفون كل شيء .. أما أبوها وأمها – إيفا ومارتن – فإن نينا لا تعرف عما يتحدثان ، ولم تتحقق من قصتهم التى يروونها .. ثم إن هناك الدراجة والطعام والمعطف ، والرجل الطويل النحيف ، إنها ترى أن لا وجود له إلا فى أحلامها ، لكن يبدو أنه قد قفز فعلاً إلى الواقع والحقيقة ، وهى لا ترغب فى أن تصدق ذلك ، لكن الكبار يتحدثون ، ويتحدثون ، وهى على يقين من أنهم يفكرون ، يفكرون فى رجل طويل نحيف ، يرتدى معطفًا أسود ، ويطوف بدراجته فى شوارع الحى فى منتصف الليل ، ويطلق صفيرًا ..لماذا يصفر ؟ ! .. نينا تعرف ، أنه يصفر للأطفال ، يصفر لها .. إن هذا الرجل الطويل النحيف ما هو إلا الولد الذى فوق الشجرة ، لقد حول نفسه إليه ، وذلك عن طريق الكلمة السحرية (زبلن) .. كانت مقتنعة بأنها كلمة طيبة .. لكن من المؤكد أنها كلمة شريرة .. إنه يسعى وراء نينا .. هل يريد أن يمسك بها ؟ أن يأكلها ؟ .. لالا ، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك .. من الأفضل ألا يكون كذلك .. لكن الكبار قالوا .. كل الكبار قالوا .. غير أنها تعرف أنهم على صواب .. زحفت نينا فى الظلام الآمن تحت السلالم .. كانت كلمات الكبار تصلها عالية غاضبة من الشرفة .. لالا ، ليس الأمر كذلك .. وتعبت .. وشعرت بالإرهاق فجلست ، وهى لا تدرى أى شيء يمكن أن تصدق ..

- ٥٧ -

زبلن .. طيب أم ردىء ؟ خير أم شر ؟ .. نينا لا تدرى لذلك أغلقت عينيها ، وراحت تفكر فى الشجرة الكبيرة .. إنِ رجلاً طويلاً نحيفًا يجلس فيها منتظرًا .. وحاولت أن تفكر فى الولد الذى هو فوق الشجرة ، لكنه لم يعد يجلس هناك .. إن الرجل الطويل النحيف قد ظهر فى أحلامها ، لكنه حى ، ويريد أن يمسك بها ، وهناك شىء واحد لابد وأن تصنعه ..وزحفت خارجة من الظلام ..

- ٥٨ -

سار مارتن حول الحديقة ، قالت له نينا :

- أبى ، أنا أعرف أين يكون الرجل الطويل النحيف ..

- الرجل الطويل النحيف ؟

- نعم ، ذلك الذى تبحثون عنه ..

- نينا ، ما هذا الذى تقولينه ؟

وجذبها الأب من ذراعها وهو يصرخ فيها :

- لماذا لم تقولى لى هذا من قبل ؟

- لقد أفزعنى حتى لا أجد لك الشجاعة فى أن أقول شيئًا ..

- هل .. هل فعل أى شىء معك ؟

كان صوته يرتعش خوفًا وهزت نينا رأسها بالنفى ..

- أين هو إذن يا ابنتى ؟

– فى الشجرة الكبيرة .. شجرة « المايل » ..

تلطع إليها لحظة ، فى شك وريبة ، ثم انطلق يجرى ناحية الشجرة .. وصرخ بأعلى صوته :

– هل من أحد هناك ؟

ولم يتلق ردًا ، ولم يقع بصره على أحد ..تعلق مارتن بأقرب غصن من الشجرة ، وجاءت إيفا إليه فى هذه اللحظة ، وسألته ..

– ما هذا الذى تفعله ؟

كان معها سيفن وليف اللذان يسكنان بجوارهما ..

قال مارتن : نينا تقول إن هناك رجلاً يجلس فى هذه الشجرة ..

واستمر مارتن يتسلق الشجرة حتى اختفى بين أغصانها ..والكل يتطلع إليه فى لهفة وقلق .. وعندما نزل هز رأسه معلنًا أنه لم يجد أحدًا .. وضحك الموجودون ضحكات قصيرة ، وقال سيفن :

– إنه خيال الأطفال .. لابد وأنك تدرك أنه لا يمكن لأحد أن يختفى داخل شجرة فى حديقتك ..

وضحك وهو يهز رأسه ، وربت على كتف نينا وهو يقول ..

– أوه ! .. نينا .. إنك دفعت أباك إلى أن يصنع شيئًا سخيفًا وغبيًّا ..

وأحس مارتن بالحرج .. وقال فى صوت غاضب ..

– ما كان يجب أن يتسع خيالك يا عزيزتى إلى هذا الحد ..

قالت إيفا ضاحكة : ما أيسر استثارتك وإغاظتك ..

قال ليف : من الواضح أن هناك أكثر من شخص واسع الخيال ..

احمر وجه مارتن ، وحملق فى وجوههم واحدًا بعد الآخر ، ثم جذب نينا من ذراعها وهزها بقوة ..

– إن هذا الأمر لا يمكن أن يكون مجالاً للهزل والفكاهة ..

وأخلى سبيلها بنفس السرعة التى أمسكها بها ، وسار الكبار عائدين نحو البيت

قالت إيفا : نينا ، لا تذهبى وحدك إلى أى مكان ..

أغلقت إيفا الباب ، وصارت نينا وحدها مرة أخرى ،وهى غير قادرة على أن تلتقط أنفاسها لمدة طالت ، ثم بدأت تشهق بصورة متتابعة إلى أن ارتخت أعصابها ، وبدأت تسترد نفسها .. لا أحد يصدقها .. إنها تشعر بأنها .. وحيدة .. فى كل هذه الدنيا مع هذا الرجل الطويل النحيف ، الذى يرتدى غطاء رأس أسود !

– ٥٩ –

تسارعت دقات قلبها .. وصلت إلى سمعها ورأسها ، مرددة كلمة متوهجة ذات رنين عال ..زبلن .. زبلن .. زبلن .. حليم ويقظ .. عطوف وطيب .. أم تراه قاسيًا وشريرًا ؟ .. نينا لا تعرف ..لكن ، إذا كان لطيفًا وطيبًا ، وإذا كان هو الوالد الذى فوق الشجرة ، فهو صديق .. ماذا فعلت معه ؟

– ٦٠ –

فجأة ، ظهر لها من خلف النباتات ذات الزهور الحمراء ، بقلنسوته السوداء ..لم تستطع أن تجرى إلى البيت ..ولم تتمكن من أن تجرى إلى

الشارع .. ها هو قادم مرة أخرى للإمساك بها .. كان الممر أقرب شيء لها ، اتجهت إليه ، وراحت تجرى ، متجاوزة الشجيرات المتشابكة ، واندفعت تفتح الباب وتجرى فى الممر ..

– ٦١ –

إنها تجرى بالضبط ، كما كانت تجرى فى حلمها الكئيب .. أقدام ثقيلة من ورائها ، والقلنسوة السوداء تتابعها ، وخاضت فى النباتات ذات السيقان الطويلة متجهة إلى قلب الغابة ، حيث يعيش الليل الدائم ، والظلام الخطير الكبير المفزع وطارت صرخة ، مرت بجانبها : زبلن .. ثم اختفى فى الممر وأعواد النبات .. وفجأة وجدت نفسها واقفة عند مجرى المياه .. وارتفعت من جديد على الجانب الآخر القلنسوة السوداء من خلفها ، وظهر ضوء أحمر ، يتماوج من خلال النباتات وقد وقف هو على الشط .. إنه الولد الذى كان فوق الشجرة ..الرجل الطويل النحيف ذو القلنسوة السوداء .. هو عند ضفة ، وهى عند الضفة الأخرى ..

– ٦٢ –

سألها وهو يلهث : لماذا تجرين بهذا الشكل ؟

لم تجب نينا ..

– مما تخافين ؟

ولم تجب ..

– ردى علىّ ..

وخطا نحو مجرى الماء خطوة ، فبدأت تجرى من جديد ..

- ٦٣ -

لم تبتعد كثيرًا ..

استطاعت الذراعان الطويلتان والأصابع البيضاء أن توقعها أرضًا .. صرخت نينا ، ورفعت من يديها تتقى بهما (نظرات زيلن) ..

- ماذا بك ؟ ما هى حكايتك بالضبط ؟

لم يكن هذا صوت الرجل الطويل النحيف ، بل هى كلمات قلقة من الولد الذى كان فوق الشجرة .. وتطلعت عيناها الزرقاوان من بين أصابع يدها لتنظر فى عينيه الوادعتين .. لم يقل شيئًا ، لكنه نظر إليها مضطربًا ..

- ٦٤ -

وعندما هدأ بكاؤها قليلاً ، سألته : هل أنت الولد الذى كان فوق الشجرة ؟

- نعم .. إنه أنا ..

- ولست شخصًا آخر ؟

- لا .. لست شخصًا آخر ..

- وهل تستطيع أن تبدل وتغير وتحول من نفسك ؟

- لا .. ليس هذا فى استطاعتى ..

- اثبت ذلك ..

- حسنًا ، كيف ؟

أبعدت نفسها عنه ، وكأنما تحاول أن تتغاضى عما قالته .. سألها مرة أخرى ..

- قلت لك : كيف ؟

لم تكن تريد أن تنطق بهذه الكلمة طيلة عمرها ، ولا ترغب فى أن تطرح عليه هذا السؤال مرة أخرى ، وهى لا تريد له جوابًا .. لقد قالت ما يكفى ..إن الجواب بداخلها ، ولا تود أن يخرج منها .. زبلن ..زبلن .. زبلن .. ونما شعاع من الضوء فى داخلها ، وتحركت أعواد النبات كأنما تفسح لها الطريق ونظر كل منهما للآخر ، وكان على وجهه ظلال خضراء ..

قال فى رقة : زبلن ..

كان الذى يجلس هو الولد الذى فوق الشجرة .. إن الكبار مخطئون .. إنها هى الوحيدة التى كانت على صواب .. وخبا الضوء ، وسكنت النباتات .. كأن شيئًا ما لم يحدث ، ونظر كل منهما للآخر وابتسم ..

- ٦٥ -

قالت نينا : إن الكبار يتحدثون عن رجل طويل نحيف ، يضع على رأسه قلنسوة سوداء ، يسرق ويرتكب أفعالاً سيئة : ولست قادرة على أن أفهم شيئًا .. إنه من الغريب أن يتحدثوا عن الحذاء الأزرق الذى كان فى غرفة النوم والصفير الذى ينطلق فى الحديقة ، إنى لم أتحقق من شىء منها .. إنها شىء بالغ الخطورة عندما يتحدثون عنها ، وهم لا يشكون قط فى أنك وراء هذا ..

قال فى جدية : طبيعى

– وأنا .. أنا نفسى .. أنا أيضًا صدقت أنك الرجل الطويل النحيف !

كان من المستحيل أن يقولا شيئًا آخر .. هى لم تستطع أن تقول له إنها حدثت أباها عنه .. كان هذا أمرًا مختلفًا تمامًا .. لم يعد له علاقة بهذا الذى يتحدثان فيه الآن ..

قالت نينا : أنت لم تكن فى الشجرة منذ وقت قليل ؟

– لا .. كنت فى أماكن أخرى طيلة اليوم .. ولم أستمع إلى الأخبار ..

– يجب أن تسعد بذلك .. إنهم جميعًا يخافونك .. أنا أيضًا كنت خائفة ..لأننى خشيت أن يكون الأمر على النحو الذى يتحدث به الكبار ..

وتطلع إليها وهو يفكر ..

– ٦٦ –

سألته نينا : لماذا اختبأت فى بيتنا ..

أجاب : ربما كنت أهرب من جماعة يريدون اختطافى

هزت نينا رأسها غير مقتنعة

– ربما كنت شخصية مشهورة متنكرًا

ولم تصدق نينا هذه أيضا

– ربما كنت مختبئًا من عصابة تطاردنى من أجل بعض المعلومات وهذه كذلك لا يمكن أن تكون صحيحة ..

– ربما أكون قد أردت الابتعاد عن أبوين قاسين ..

وقبل أن تهز رأسها سمعا صرخات عالية تتردد داخل الغابة ..

- نينا ! نينا !

كان هذا هو نداء مارتن وإيفا وأصوات أخرى كثيرة .. تبادلت نينا والولد النظرات بسرعة ، وقال لها برقة :

- إنهم يبحثون عنك .. يجب ألا يعثروا عليّ الآن ..

نينا ! نينا !

كانت الأصوات غاضبة ، عالية ، قوية .. قال الولد ..

- هيا ، أسرعى بالعودة إليهم قبل أن يأتوا إلى هنا ..

وراح يزحف بين أعواد النباتات ، إلى الناحية الأخرى من الترعة ، وقال

- لا أظن أنهم سيفعلون شيئًا إلا الصراخ فى وجهك ..

نينا ! نينا !

كانت الأصوات قد اقتربت هذه المرة ، وشعرت بالرغبة فى أن تتبع الولد الذى كان فوق الشجرة ، وتود أن تختفى بين الأشجار الخضراء بعيدًا عن أصواتهم .. لقد أخطأت مرة أخرى ، وشعرت بذلك من نداءاتهم باسمها ، تمامًا مثلما حدث يوم اختفت من البيت وهى صغيرة .. كما أن الطريقة التى تحدثت بها إيفا .. وتكلم بها مارتن قد جعلتها تشعر بالحزن وترغب فى البكاء .. ودفعت أعواد النبات جانبًا ، وهتف سيفن :

- إذن ، أنت ها هنا ؟

كان يبدو وكأنه لا يصدق عينيه ، وصاح بأعلى صوته ..

- لقد وجدتها ..

ارتفعت الأصوات القادمة ، إلى أن وصلت إلى مكانها ، وراحت تحدق فيها ، وقد ظهرت على وجوههم علامات الغضب ، كأنما كانوا يتوقعون شيئًا آخر يختلف تماما عما وجدوه .. وكانت إيفا ومارتن بين القادمين ..

قال مارتن فى صوت يشع بالفرحة ..

– نينا ..

ثم تغير صوته ، وأصبحت فيه رنة غضب وهو يهتف من جديد : نينا ! .. وقالت إيفا ..

– نينا .. لقد رحنا نبحث عنك ونبحث .. وأتينا بكل الجيران معنا لأننا ظننا .. وسكتت إيفا ولم تكمل عبارتها ، بينما أكمل مارتن الكلمات قائلاً ...

– هل كنت تجلسين هنا طيلة الوقت وحدك ؟

كان واضحًا أنهم كانوا يتوقعون شيئًا آخر .. قال مارتن :

– هيا بنا ..تعالَىْ .. من الأفضل أن نعود إلى البيت ..

وقفت نينا ، لم تستطع أن تنظر إليهم .. وسارا والباقون من ورائهما .. وبدءوا يتكلمون بصوت عال ويضحكون ، كأنما انزاح عن كاهلهم عبء ثقيل ، ولابد وأنهم كانوا ينتظرون أن يروا شيئًا رهيبًا وفظيعًا ..

لم تستمع نينا إلى أحاديثهم .. كان جانب كبير منها مازال جالسًا هناك بين أعواد النباتات الطويلة ، رزحفت أفكار كثيرة إلى رأسهما حول الولد الذى كان فوق الشجرة ..

– إننى لم أعد أفهمك يانينا ، أنت تتصرفين تمامًا عكس ما نطلب منك ...

كانت نينا تنظر إلى أمها إيفا ،التى لم تكن غاضبة ، لكنها كانت حزينة .. وكان والدها مارتن – أيضًا – غير غاضب ، وكان ينظر إليها طيلة الوقت كأنما يريد أن يعرف إذا ما كان قد اعتراها تغيير ما ، وإذا ما كانت قد أصبحت مختلفة ..

قالت إيفا : لقد أفزعتنا اليوم ، ولقد طلبنا إليك أن تبقى قرب البيت حتى نعرف تمامًا ما الذى يجرى هنا .

أضاف مارتن : وأنت تعرفين من الممكن أن يكون الأمر فيه خطر عليك .. إنك أصغر من أن تدركى مدى خطورته .. لقد كنا خائفين من أن يكون قد وقع لك شىء .. ونحن نحبك كما تعلمين ، إنك ابنتنا العزيزة ..

قالت إيفا :ونحن والداك يانينا ، وأستطيع أن أقول إن شيئًا ما قد حدث فى الأيام القليلة الماضية ، وأنت تخفينه عنا ، وأرى أن هذا أمر محزن ومؤسف .. ومن المؤكد أننا نستطيع أن نساعدك إذا كان هنا خطأً ما ..

سألها مارتن : نينا ، ماذا كنت تفعلين فى الغابة ؟

لم تستطيع أن تجيب ..

– أنت تعرفين أننا خائفون من أن يقع لك ما لا تحمد عقباه ، ويجب عليك أن تقولى لنا :

لماذا ذهبت إلى هناك ؟

ولم تستطع نينا أن تجيب ..

سألها :هل أغراك أحد بالذهاب إلى هناك ؟

ولم تجب .. قالت إيفا :

– من الممكن أن يكون الأمر خطيرًا جدًا .. ونحن لا نعرف بالضبط ما الذى يجرى ويحدث فى بيتنا ، وفيما حولنا ..

وأخيرًا ، نطقت نينا ، وكان باستطاعتها أن تجيب .. قالت بهدوء غريب :

– لا ، إنه ليس خطرًا ..

وساد صمت كامل .. كان ذلك يوم الجمعة الرابع عشر من يوليو فى الساعة الرابعة وسبعة وعشرين دقيقة مساء .. أُطبق الصمت الرهيب عليهم للمرة الثانية .. وتبادلت إيفا ومارتن للنظرات ، كأنما كان يأملان ألا يسمعا ما قالته ..

قال مارتن فى صوت مصدوم : إنك لا تعرفين أى شىء عنه ..

بعدها فقد أعصابه ، وضرب على المنضدة بقبضة يده ، ورن صدى الصوت وتردد داخل الجدران ..

– وعليك أن تجيبى على أسئلتنا عندما نسألك عن شىء ما ..

وانهالت عليها الأسئلة ، بأصوات غاضبة مكتئبة ..

– ٦٩ –

كانت الأسئلة سهلة بسيطة ، لكن الإجابة عليها كانت مستحيلة ..

نينا وحدها تعرف إجاباتها الخاصة ، وإيفا ومارتن يريدان أن يسمعا

الإجابات المتعلقة بهما ، لقد قالت الصدق لكنهما لم يصدقاها ، كانت الأسئلة لا يمكن لها أن تجيب عنها ، لذلك ساد الصمت ..

- ٧٠ -

ونزل المطر مع المساء .. ولمع البرق ،وقصف الرعد .. وهبت نسمة حملت معها أريج الزهور عبر النافذة المفتوحة ، وراحت إيفا ومارتن يرقبان نينا باستمرار .. إن لها نظرات دهشة ، وأخرى حزينة ، ونظرات كئيبة ، ونظرات احترام ، وكانوا جميعًا فى انتظار إجابات على أسئلتهم ..

وكانت نينا تتساءل فيما بينها وبين نفسها : هل عاد الولد للجلوس فوق الشجرة ؟ .. ربما كان من الممكن أن يستمتع بصوت تساقط المطر على أوراق الأشجار ..

وتوقف رجل عند باب البيت ، وتطلع إليه ، ولم تمتد يده لتفتحه ، بل بقى خارجه ..ثم نظر إلى الحديقة ، وعاد يحدق فى البيت مرة أخرى .. وكانت مظلته السوداء مبللة بقطرات المطر ، وقد راحت تنزلق من فوقها فى يسر وسهولة ثم استدار واختفى عند منعطف الطريق ..

تساءلت إيفا :

- أى شىء كان يريد ؟

كان واضحًا أنه يريد شيئًا ما ، وقد لاحظت نينا ذلك على الفور ..لقد نظر إلى الحديقة كأنما يعرف ما يريده .. كان يبدو وكأنه يبحث عن شىء ما ، لكنه لم يجد لديه الشجاعة الكافية ليدخل إليهم ويسألهم عن هذا الشىء ..

قالت إيفا ، يخالطها شعور بعدم الارتياح ..

– هناك يا مارتن رجل يتلصص على بيتنا ، وكان يحدق فى حديقتنا ..

– ٧١ –

جاءت إيفا وجلست على حافة سرير نينا ، وكان المطر يتساقط برقة على زجاج النوافذ ، وسادت الظلمة داخل البيت .. قالت الأم ..

– إيفا ، أريد فقط أن أقول إنه ليس من السهل علينا أن نعرف ما حدث ، مما يمكننا أن نصدقه ..

وصار وجهها شاحبًا ..

– ونحن نخشى أن يقع لك شىء ، لا تحمد عقباه ..

وراحت تمر بيدها من فوق الغطاء ..

– إننا نفعل ما نعتقد أنه صواب ..

كان الصوت رقيقًا كالمطر الذى يتساقط بالخارج

– لكن ، قد لا يكون ذلك كافيًا ..

وكان كل ما هو مطلوب من نينا أن تمد يدها لتلمس ذراع أمها . لكنها لم تفعل .. وقامت إيفا ، قائلة « تصبحين على خير » ..

ومضت إيفا وخلفت وراءها فراغًا راح ينمو من بعدها ..

– ٧٢ –

ليلة من ليالى يوليو ، والقمر

الحديقة رمادية ، والمطر العضىّ .. وفجأة تستيقظ من أحلام جميلة ،

وأقدام عادية تهبط السلم الخشبى ، ويسمع صوت أنين عند هذا السلم ، وعند الباب .. بلا صوت ، تقف نينا من تحت قمر الصيف ، والليل ، وضياء النجوم .. تقف لأول مرة بالخارج وحيدة .

- ٧٣ -

إنها وحيدة فى الحديقة التى تعرفها خلال النهار ، لكنها غريبة عليها بالليل .. إنها شبيهة باللقاء مع مغامرة فى واقع الحياة ، ومن النافذة أعطت الحديقة إحساسا بأنها رمادية ، غير أنها الآن تختلف ، إذ رأت نينا خبات المطر تلمع فوق الحشائش الخضراء وبريق الزهور الحمراء يتألق ، وشجر البتولا يتخلله بياض زاهى ، وأعواد الذرة وقد تمايلت أغصانها أشباحًا زرقاء وانعكس ضياء القمر على زجاج النافذة ..

كانت وحيدة فى الحديقة ، ولم تفكر فيما كان يجب عليها ، أن تستأذن فى هذا الذى تفعله ، ولم تفكر فى أبيها وأمها ، كانت تفكر فى نفسها ، إنها لم تر قط - فى حياتها - الحديقة على هذه الصور .. ربما كانت هذه هى حقيقتها - أى الحديقة - لذلك تسارعت دقات قلبها ، وأنفاسها .. هى والحديقة .. يتنفسان معًا .. وقلباهما يخفقان معًا .. « بوم ، بوم » .. كانت الدقات تتصاعد من خلال الحشائش والأشجار القائمة ، والشجيرات الصوفية .. زبلن .. زبلن .. زبلن .. وكان كل شىء فى الحديقة يتمايل ويتأرجح ، مع هذه الكلمة التى راحت تتمازج عبر ظلمة الليل ، وراحت تفكر فى الولد الذى كان فوق الشجرة ، ثم مضت إلى حيث المروج الخضراء ، وراحت تتمايل مع كل شىء فى الحديقة ..

همست فيما بين أوراق الشجرة « المفضضة بالضياء » ..

- هل أنت هناك ؟

- نعم ، أنا بانتظارك .. اصعدى ..

لم تكن نينا قد تسلقت شجرة من قبل ، لكنها قبضت على اليد التى امتدت إليها ، واستطاعت بذلك أن تصل إلى أقرب فرع ، وبذلك صار الباقى سهلاً يسيرًا ، وصعدت إلى الولد الذى يجلس بين الأغصان فى تلك الليلة الخضراء ..

قال لها :كنت أعلم أنك ستأتين .

.. كان عليها أن تطرح عليه فورًا ذلك السؤال الذى أيقظها من نومها ..

- هل أنت الذى سرقت دراجة (جوهانز) ؟

- أنا فقط استعرتها .. استلفتها ..

- هل سرقت لحومًا وخبزًا من (جرده) ؟

- قطعت شريحتين من اللحم ، وقطعتين من الخبز لا أكثر لأنى كنت جائعًا ..

- وكيف دخلت إلى بيتهم ؟

- بنفس الطريقة التى دخلت بها بيتكم

- كيف كان ذلك ؟

- إننى أستطيع أن أفتح أى قفل فى العالم

نظرت إليه نينا .. إنه يكذب ..

– هل سرقت معطف المطر أيضا .

– كانت قد بدأت تمطر ، وكنت أعرف أن ستيفن لديه معطف مطر قديم فى القارب الذى يرسو على شط النهر .. كل ما هنالك أنى استعرته .. ودراجة (جوهانز) خلف هذه الشجيرات .. هناك فى القارب .

وصدقته .. إنها لا تصدق الكبار

– لماذا جئت إلى بيتنا ؟

سكت لحظة فى البداية ، ثم جاءت إجابته

– بيتكم يشبه قلعة « الجميلة النائمة » ، تحيط به أشجار وشجيرات وغابات ، ولا أحد يستطيع أن يعرف إذا ما كان هناك من يعيش فيه ..

– كم بقيت فى منزلنا ؟

– بقيت فيه نحو أسبوع ..

– ولكن لماذا تختبىء ؟

– لقد تركت لهم البيت ، تقريبًا ..

– تقريبًا ؟

– نعم ، تقريبًا ..

وسمعا صوتا فيما بين الحشائش ، لذلك سكتا وسكنا فى مكانهما .. وحرك الولد بحرص بعض الأغصان ، ونظر من خلال الفرجة التى حدثت .. كانت هناك قطعة متحركة من ظلام دامس تحتهما ..إنه الرجل القادم من البوابة .. ذلك ما شعرت به نينا .. إن له علاقة ما بالحديقة والليل والولد ،توقف ، تقريبًا تحت الشجرة مباشرة ، ورفع رأسه فى بطء ثم راح

ينظر إلى أعلى .. تركا الأغصان بهدوء . وانتظرا .. لا يمكن أن يكون قد رآهما .. كان صوت الرجل رقيقًا ، وكأنه يهمس ، لكنهما سمعا كلماته فى وضوح ..

– « سوف نحاول .. لا نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك .. الآن أنت تعلم .. »

وانتظرا لفترة طويلة ، لكنه لم يقل شيئًا فوق هذا ، وتطلعا مرى أخرى فى حذر شديد من بين أغصان الشجرة .. لم يعد الرجل هناك ..همست نينا ..

– ماذا يعنى هذا ؟

لم تكن خائفة .. ولا مضطربة ، وكأنما كان المفروض والمتوقع هو أن تحدث هذه الأشياء تحت الأشجار فى الحديقة ليلاً .. قال الولد ..

– إنها رسالة

– رسالة لك ؟

وهز رأسه ، أى نعم ..

– ٧٥ –

قال الولد بعد قليل

– هناك سبب خاص فى أنى انتقلت إلى بيتكم .. الممر ..

– تقصد الممر الموجود خلف البيت ؟

هز رأسه ، نعم ..

– كان مهمًا جدًا أن أكون بالقرب منه

وجلسا متجاورين ، جنبا إلى جنب ، ولمس ذراعه ذراعها ، وشعرت بالدفء يسرى إليها .. كان أضخم منها ، وكان أكبر سنا بالتأكيد .. قد يكون فى الثانية عشرة من عمره ، ولم يكن هناك من سبيل لسؤاله عن هذا الآن .. مدت قدمها العارية لتلمس حذاءه .. (حذاء زبلن) .. وشعرت فى هذه اللحظة بشعاع من النور يتخللها ، نفس الضياء الذى كان فى حديقة يوليو والليلة القمرية .. وذلك بالتأكيد هو السبب فى أنها ارتضت لنفسها أن تجلس فوق شجرة فى منتصف الليل ، لتستمع إليه ، ورفعت خصلة من شعرها ونظرت إليه .. كان شعرها أسود ، مع مسحة فضية تحت سماء يضيئها القمر ، وجف الغصن الذى يجلسان عليه ، وابتلت بيجامتها ، لكن ذلك لا يهم .. وأضاف الولد فى صوت قريب خفيض ..

– إذا ما جد الأمر يومًا ، سيكون على أن أستخدم الممر ..

وأحست نينا بارتعاشة فى ظهرها ..

– هذا الممر يقود إلى كهف سرى لا يعرفه أحد فى العالم كله ، ولا يستطيع أن يعثر عليه مخلوق .. سأكون آمنًا هناك .. ويمكننى أن أعيش فيه ولو امتد بى العمر مائة عام ..

– إنه لم يعد سرًّا الآن بعد أن حدثتنى عنه ..

– لا أحد غيرك يعلم به

– كيف يمكننى أن أصل إليه ؟

– أنت لا تستطيعين ذلك .. إننى الوحيد الذى يستطيع أن يجتاز إليه كل المخاطر التى تنتظرنى .. بداية هناك أربعة فرسان كل منهم

يحمل سيفًا حادًا من الصلب القاطع ، من الممكن أن يمزق الأحجار والمعادن ! .. إنهم يقتلون كل من يحاول أن يسير فى هذا الممر ، سواء كان فأرًا أو بشرًا ..

وكان يرقبها أثناء حديثه

– ثم هناك أربعة ذئاب ، هى جوعى دائمًا ، وتأكل كل من يقترب منها ..

كانت تنتظر إليه طيلة حديثه ..

– ثم هنالك عنكبوت عملاق ، نسج خيوطه على الممر .. وهو جميل إلى حد أن البشر والحيوانات يمضون إليه بلا توقف لحظة رؤيته ، وبذلك يسقطون فى الفخ إلى الأبد .. كان كل منهما يرقب الآخر أثناء الكلام

– ثم هناك رجال طوال نحاف يرتدون قلنسوات سوداء .. يمسكون بالأطفال ويأكلونهم .. بعدها أصل إلى الكهف حيث لا يستطيع أحد أن يجدنى ..

ونظر الولد إلى أسفل .. وقالت نينا

– لماذا تقول لى كل هذا ؟

رفع بصره إليها .. كانت عيناه زرقاوين .. لم تستطع أن تراهما فى الظلام لكنها تعرفهما .. لم تكن عيناه أبدًا قاسيتين ،ولم تحملا أى خطورة أو تهديدٍ لها ..

– ربما لأنك تعيشين قرب الممر ، ولأن بدايته فى حديقتكم ..

وحجبت سحابة القمر ، وللحظة صارت الحديقة بلا ضياء ، وزحفت

ظلمة شديدة من ناحية الغابة ، والتصقت به نينا ، وسرت البرودة فى قدمها .. ثم عاد القمر ليطل على وجهيهما الشاحبين ..

همست نينا : يجب على أن أمشى الآن ..

مد يده بحنان من فوق شعرها .. واستقرت أصابعه على كتفها .. وتركتها تبقى حيث هى لثوان قليلة ممتدة ، ثم بدأت تهبط من فوق الشجرة ، وقرب الأرض قفزت فوق الحشائش الخضراء وأحست بها ناعمة مبتلة تحت أقدامها .. همس ..

– قابلينى غدًا ، ظهرًا ، عند أعواد النباتات الطويلة ..

وبدأت هى تتجه إلى البيت .. ثم كانت هناك همسة أخرى من ورائها ..

– وانتظرى .. قد يكون فى مقدورك أن تأتى لى ببعض الطعام معك عندما تحضرين ..

كانت نافذة نينا تنظر إليها ، وقد انعكس عليها ضياء القمر ، والتفتت نينا إلى الوراء ، وتوقفت عند السلم ، ودارت إلى الخلف .. وراحت تتسمع .. نعم ، دقات القلب وتتابع الأنفاس مازالت هناك .. كانت نينا تريد أن تطفو سابحة .. وكانت حقيقة تفعل ذلك ، خلال الحديقة ومن فوق الحشائش الخضراء ..وهناك ، فوق الشجرة ، واتاها إحساس واحد طويل بأنها : « تطفو » .. مدت ذراعيها ونظرت إلى أطراف أصابعها .. وخطر لها أنها كبيرة جدًا .. إنه لم يخطر ببالها قط من قبل إن لها أطراف أصابع تستطيع بها أن تطول الأشياء !

- ٧٧ -

كانت إيفا ومارتن نائمين ، دون أن يعلما بالأمر ، ودون أن يشكا فى شىء .. ونظرت إليهما نينا من خلال فتحة فى الباب .. كان فى أعماقها شىء يقول لها بأنها لابد وأن تكون بلا ضمير أو صاحبة ضمير سيىء وردىء .. لا ، إنها ليست كذلك .

- ٧٨ -

فى البداية كانت الأصوات آتية من بعيد .. ثم اقتربت .. ثم صحت من نومها .. كانت هناك أصوات عديدة خارج المنزل ، لابد أن شيئا ما قد حدث لأن الجميع كانوا يصيحون فى نفس الوقت ، فخطت ناحية مثلث الشمس الأصفر الواقع على الأرض ، وداسته فى طريقها للنافذة .

لقد تأخرت فى نومها صباح اليوم ، ومالت تنظر من النافذة ..كان هناك مارتن وإيفا وسفن وليف .. كانوا يقفون على الدرج وهم يتزاحمون حول شىء ما ، وراحوا يتحدثون بانفعال شديد قالت نينا : ما هذا ؟

وارتفعت أبصارهم جميعًا إليها ، وسخر سيفن بكلمات مبهمة حول الساعة والوقت ، بينما ارتفعت ذراعى إيفا بطريقة تمثيلية وهتفت :

- انظرى ..

وتنحوا جانبًا ، فرأت نينا على السلم دراجة خضراء ، ومن فوق مقبضها معطف مطر أسود !!

قالت مارتن : الأسوأ من هذا أننا لا نعرف من أين جاءت ..

وقالت إيفا فى لهجة شاكية : إنه أشبه بالكابوس .. لماذا هى هنا ؟

- ٧٩ -

وقف الخمسة من حول الدراجة .. أربعة كانوا مضطربين مشوشين ..واحدة منهم لم تكن كذلك .. قال مارتن :

– أنا غير قادر على أن أفهم شيئًا .. هذه لابد وأن تكون دراجة (جوهانز)

سأل ليف : لكن لماذ هى هنا ؟

وقالت إيفا : ماذا يريدون منا ؟

عقب سيفن :يبدو .. غالبًا .. أن هنالك من يريد أن يخيفكم

كانت الدراجة خضراء ، وهناك رسم للشمس على مقبضها

لم تقل نينا شيئًا .. مع أنها تعرف كل شىء !

- ٨٠ -

وعندما كانوا يتناولون طعام الإفطار ، قالت إيفا ..

– لقد تأخرت فى نومك كثيرًا يا نينا .. هل نمت بشكل جيد ؟

أجابت نينا : طبعًا ، نمت بشكل جيد جدًّا ..

قالت إيفا : أنا تقريبا لم يغمض لى جفن ..

على كل حال ، لاشك أن جفنيها كانا مغمضين على الأقل عندما ذهبت نينا للحديقة ليلاً ..

قال الشرطى عندما جاء ليرى الدراجة

– هذا عبث أطفال

هتف مارتن فى غضب وسخرية : عبث أطفال ؟ لا أرى فى ذلك عبثًا على الإطلاق إن هذا يعنى إفزاعى وإرهابى وإذا ما استطعت الوصول إلى هؤلاء الذين يفعلون هذه الأشياء ، فإنهم لن يفلتوا من يدى مطلقا ..

قال رجل الشرطة : لا .. لنفرض أن الأمر ليس مجرد مداعبة وعبث ، لكن ما الذى نفعله مادام الجميع لا يعرفون شيئًا عما يجرى ؟

قال مارتن وصوته يزداد ضيقًا وغضبًا كلما امتد به الكلام ..

– لقد أصبح الأمر غريبًا ومثيرًا .. إننا فى مكان صغير محدود ، ومع ذلك فلا أحد يستطيع أن يصنع شيئًا إزاء قضية بسيطة مثل هذه .. ماذا سيحدث لنا إذا كان القانون غير قادر على حمايتنا ؟ أى نوع من « العالم » سنعيش فيه ؟ عناصر فى منتهى الخطورة تنطلق من حولنا حرة ، تفعل ما تشاء لتهدد البيوت ، وترهب سكانها إلى حد أننا أصبحنا غير قادرين على أن ننام فى هدوء وسلام ..ثم ، ها نحن أمام حكاية هذه الدراجة ..

خطا مارتن نحو رجل الشرطة ، وقال له ..

– هل تعرف ماذا يعنى هذا ؟

هز رجل الشرطة رأسه نفيًا .. فأضاف مارتن ..

– ولا أنا أيضا أعرف ..

وانخفض صوت مارتن إلى حد أن أصبح همسا ..

– لكننى أتوقع ما هــو أســوأ ، وسـوف أقلب الأرض بحثًا عن المجرمين ..

نظرت نينا إليه .. « المجرمون » .. هى ، إذن ، واحدة منهم ، بالتأكيد لكنها لم تكن على يقين من ذلك الجرم الذى ارتكبته ..

– ٨٢ –

راحت نينا تصغى .. لم تكن هناك خفقات قلب ، أو أنفاس أنسام .. لا ضوء فضى ، ولا حتى غبشة المساء .. النهار والليل ، كأنهما مكانان مختلفان على خريطة الحديقة فى ضوء النهار مفتوحة للجميع .. لمارتن وإيفا ولأى شخص يأتى ويذهب .. أما حديقة الليل فهى مفتوحة لقلائل .. نينا والولد الذى هو فوق الشجرة ، ولكل من يرقص ويتمايل ويترنح مع ضوء القمر ..

إيفا ومارتن ينامان أثناء الليل ..

– ٨٣ –

– لو كنا نعلم شيئًا .. لكننا لا نعرف شيئًا على الإطلاق ..

كانت نينا تتطلع عبر المروج الخضراء ، متجاوزة شجيرات الورد ، ناحية السور والبوابة ، وإلى أبعد من ذلك ..إلى الممر .. وراحت تتخيل كيف ينعطف الممر تحت أعواد النباتات الطويلة ، ثم أشجار الغابة ، ثم تبدو من بين كل ذلك قطع صغيرة من قميص أحمر و ...

قالت إيفا : نينا ، ما الذى يجعلك تبتسمين ؟

انتزعت الكلمات نينا من خيالاتها وأفكارها .. قال مارتن ..

– إن لديك شيئًا ما له وتجهزين نفسك

وأضافت إيفا : لن تستطيعى أن تنكرى هذا

وقال مارتن : لماذا لا تقولين لنا ماذا هنالك ؟

وقالت إيفا : أنا لا أحب منك أن تبقى على أشياء ، سرًّا علينا ..

أغلقت نينا عينيها طيلة استماعها إليهم .. كانوا بالضبط أشبه بأطفال الشوارع فى مدينتهم ..

إنهم يتقلصون ، ويصغرون ، ويرددون كلمات الأطفال ..وفتحت نينا عينيها ، واسعتين ..

وقال مارتن يخاطب إيفا ..

– لقد أفسدتها ..

صاحت : أنا ؟

– نعم .. إنك أنت التى ربيتها على هذه الصورة ..

– ذلك لأنك لم ترغب فى أن تتحمل المسئولية معى ..

كانت أصواتهما تتصاعد ، نحو الغضب .. كانا يتكلمان معًا ، وفى نفس الوقت ، ولا أحد منهما يستمع إلى ما يقوله الآخر .. ووقفت نينا تريد أن تغادر منضدة الحديقة ، وكانت تشعر بقلق داخلى .. هذه هى الطريقة التى يتحدثان بها من وراء الأبواب المغلقة ، ويؤذيها كثيرًا أن تستمع إليهما ، لذلك اختفت فى ركن وراء البيت لتتفادى أصواتهما ..

- ٨٤ -

نينا أثناء النهار .. نينا أثناء الليل ..

خلال النهار هى مستيقظة .. خلال الليل هى نائمة .. ليلة واحدة تلك التى بقيت مستيقظة مع أنها لم تنم قط خلال النهار .. وأمس لم يكن منذ أزمان بعيدة ، ولم يمض وقت طويل على جلوسها بين النباتات الطويلة الأعواد مع الولد الذى كان فوق الشجرة ، ولم تمر فترة مديدة منذ بحث عنها مارتن وإيفا ، وعثرا عليها ، وكانا غاضبين غضبًا شديدًا معها ..

والليلة الماضية ، كانت منذ وقت بعيد .. نعم ، منذ وقت بعيد أضيئت الحديقة بألوان فضية ، وجلست فوق الشجرة تتحدث مع هذا الولد ..

وهى عندما تفكر فى هذه اللحظات تحسبها كانت حلمًا ..

- ٨٥ -

لقد كانت سعيدة فى الليلة الماضية .. تكاد تطير لفرط سعادتها لقد وقفت وتمنت أن تنام خلال النهار وتصحو أثناء الليل .. وأن ينقلب كل شىء رأسًا على عقب .. ودق قلبها فى عنف ، وتسارعت أنفاسها ..

هل هى أفكار تهدد بمخاطر ؟ !

لا لا .. أبدا .. قالها مارتن فى رأسها ..

وجرت إلى حيث الباب الأمامى للبيت ..

- ٨٦ -

توقفت نينا قليلاً .. كان مارتن وإيفا يقفان على جانبى منضدة الحديقة .. كان وجهاهما غير مألوفين ، وقد تخشبت أذرعهما .. واضح أنهما قد انتهيا من نقاش حاد ، ومعركة .. كانت كلماتهما الأخيرة تصلصل من فوق الحشائش الخضراء ، وليس بوسعهما أن يدعيا أنهما لم يتشاجرا ، إذ لم يكن هناك الآن باب بينهما وبين نينا ، ولم تلح على أى منهما ظلال ابتسامة سعيدة ..

- ٨٧ -

لم تستطع نينا أن تذكر لهما شيئًا عن الدراجة الخضراء ، لقد عرفت بأمرها أثناء الليل ، ونينا أثناء النهار لا تعرف شيئًا ..

- ٨٨ -

بقيت دقائق خمس على ظهر اليوم .. كانت الحديقة ساكنة .. والمنزل هادئًا .. ومضى مارتن على الطريق مبتعدًا دون أن يقول كلمة ، ودخلت إيفا غرفة النوم وأغلقت عليها الباب بالمفتاح .. إيفا أخذت ما يكفيها من إيفا .. ومارتن أخذ ما يكفيه من مارتن .. ولم يناد أحد على نينا وهى تمضى تجاه الممر ، وفتحت الباب وأغلقته من ورائها ، ومضت تسير وسط ظلام الأشجار المتشابكة ..

- ٨٩ -

كان قد سبقها إلى هناك .. وقال فى حزم ..

– كم الساعة الآن ؟

– أنا ...

– إنها الثانية عشرة وخمس دقائق .. عندما أقول الثانية عشرة فهى الثانية عشرة .. شعرت نينا بالخوف ، وابتسم هو .. وقال فى لهجة الكبار وطريقتهم ..

– اسمعى يا صديقتى .. يجب ألا تضطربى عندما يحاول الكبار إغاظتك ومضايقتك ..

جلست نينا بجانبه ، وقال لها ..

– وأين الطعام الجيد الوفير الذى وعدت بأن تحضريه معك من المطبخ الملكى ؟

الطعام ! لقد نسيته تمامًا !

تنهد وقال : اوه ! يجدر بى أن أرقد هنا وأموت جوعًا بينما تبتلعين أنت أجود الأطباق فى العالم وأشهاها ، وتتخمين نفسك أكلاً حتى الموت ..

نظرت إليه نينا فى دهشة .. فأضاف ..

– إنه لمن حسن حظى أنى أستطيع أن أعيش بلا طعام لشهور طويلة .. وإذا أنا مت جوعًا ، فسوف أبعث من جديد ، وألومك على ما حدث ، وسوف يطاردك ذلك كل ليلة أن يدفعك للجنون !

ونظر إليها ضاحكًا وقال : يجب ألا تصدقى كل ما أقول ..

سألته نينا التى لم تكن راضية على الإطلاق عن حديثهما :

– أنت ، لماذا طلبت منى أن آتى إلى هنا ؟

– أنا لم أنته من حديثي معك عن الجوع .. من الممكن أن أرجئ ذلك إلى وقت آخر ..

هينا بنا ..

ونهض من مكانه وبدأ يزيح النباتات من طريقهما .. ومضت وراءه .. ولقد تحدث بطريقة مختلفة طيلة اليوم ..

– ٩٠ –

همس وهو يرقد على الأرض : اش ..

وفعلت نينا نفس الشيء ، وراح يزحف بين أعواد النباتات ، وتوقف عند تل ، جلس من فوقه ، وزحفت نينا لتجلس بجواره .. وعلى مسافة قريبة كان هناك بيت أبيض أقيم وسط حقل ، في قلب الغابة الخضراء ، وقريبًا منه رأت منزلاً أحمر اللون ..وسألته ..

– ماذا نفعل بجلستنا هنا ؟

لم يجب على سؤالها ، وتطلعت إلى البيت .. كانت هناك بنت صغيرة تجلس على السلم تعمل في شيء ما ، لم تستطع نينا أن تتبينه .. وكان هناك حصان يضرب الأرض بقدمه في زاوية من البيت .. وخرج رجل من الحظيرة ، بدا لنينا أنه معروف لديها ، لكنها لم تستطع أن تعرف من هو على وجه التحديد ، ثم اختفى داخل البيت الأبيض .. وفجأة أطلق الولد صفيره الذي كان يطلقه في الحديقة ، ورفعت البنت الجالسة إلى السلم رأسها .. وصفر من جديد مرة أخرى ، فوقفت الفتاة ، وجرت مسرعة نحوهما ، كأنما تعرف بالضبط أين هما .. وهز الولد والبنت رأسيهما ،

كل منهما للآخر ، ولم تلتفت البنت إلى نينا مرة واحدة .. وشعرت نينا أن الفتاة مسرورة وفرحة بلقاء الولد ، الذى سألها ..

– هل مازالا كما هما ؟

– لا .. لقد توقفا فى الوقت الحاضر ..

وتنهد الولد .. وقال ..

– إننى أعنى ما قلت ، يجب أن تدركى هذا جيدًا .. كلاهما يجب أن يكتبها على الورق .. يجب أن يعدا وعدًا قاطعًا .. قولى لهما إنى أريد ذلك مكتوبًا ..

هزت الفتاة رأسها .. وأضاف :

– قولى لهما إننى من الممكن أن أذهب أبعد مدى إذا لم يفعلا ذلك .. نعم ، سأقول لهما هذا ..

نظرت إليه الفتاة ، وفجأة شعرت نينا بالعطف على البنت ، إذ كانت تبدو عاجزة عن صنع أى شىء .. قالت الفتاة فى صوت منخفض ..

– إنى أريدك أن تعود إلى البيت مرة أخرى قريبًا جدًّا ..

– لقد حصلت على نقود ، وأستطيع بها أن أسافر إلى أى مكان .. تعرفين أنى كسرت حصالة نقودى ، وأنى استدنت نقودًا من درج الخزانة ، وأعرف أنهم لابد وأن يكونوا قد عرفوا بذلك ..

هزت الفتاة رأسها : أى نعم ..

سألها : هل غضبوا ؟

– لا .. ليس بالضبط .. قالا إنهما يقدران الموقف ويفهمان الأمر ..

قال الولد مكتئبًا : نعم ، أنا متأكد من هذا .. لأنهما يفعلانه باستمرار .. يومان فقط ، ثم يعودان إلى ما كانا عليه .. هل ستخبريهما ؟

– نعم ..

وبدأ الولد يرجع للوراء قليلاً ، ثم قال لها ..

– هيا .. عودى للبيت قبل أن يتنبها إلى غيبتك ويستنتجا لماذا أنت هنا ..

استدارت الفتاة ثم جرت إلى البيت .. وكانت نينا تعتقد أن الفتاة لم ترها ولم تلحظ وجودها .. وخرج الرجل مرة أخرى من البيت واتجه ببصره ناحية التل ، غير أنه لم يكن باستطاعته أن يراهما ..

– ٩١ –

لم يذكر الولد من هى هذه الفتاة ، ولا من هو هذا الرجل ..

ولم تسأله نينا .. ولم يخبرها لماذا جاءت وحدها .. ولم تسأله .. وسارا معًا على طول الممر ، هو فى المقدمة وهى من ورائه .. وساد صمت طويل وقيلت بعد ذلك بضع كلمات ، وقال لها : أحسنت ، إذ أتيت لتكونى معى !

– ٩٢ –

سألته نينا عند البوابة : هل ستصعد إلى الشجرة مرة أخرى ؟

هز رأسه ، أى نعم ..

قالت : لقد ظننت أنك تقيم فيها طيلة الوقت ..

هز رأسه .. قالت : لكنك تنام هناك ؟ ! ..قال :لا ..
قالت : قلت لى هذا .. أين تنام إذن ؟
– فى أماكن مختلفة .. أحيانًا فى حظيرة أو مخزن غلال ..
– لكنك قلت ..
– نعم ، أنا أقول الكثير .. لقد كنت أرغب دائمًا فى أن أنام فى الشجرة ، غير أننى لم أجد سبيلاً إلى هذا ..
– لماذا تجلس فى الشجرة أثناء الليل ؟
– لأننى أكون فى انتظارك ..
كانت تتمنى أن يقول هذا .. وقد سرها أن يقوله ..

نادته قائلة : انتظر .
كانت خائفة وهى تتطلع إلى البيت .. لم يكن هناك أحد .. وكان هو قد استدار ومضى بين الأشجار ، ثم عاد مستجيبًا لندائها ..سألته ..
– لماذا أعدت الدراجة إلى بيتنا ؟
وملأت الابتسامة وجهه ، وهو يقول :
– كل ما هنالك أنى رغبت فى أن اعرف ماذا سيفعل الكبار .. مجرد دراجة عادية ومن فوقها معطف أسود للمطر فوق مقبضها ، وجلست فوق الشجرة أرقب أمك وأباك ، وقد راحا يصرخان ويشكوان كأنهما آلة للموت .. لقد خافا من قبل من الحذاء والصفارة, وليس غريبًا أن يرتعدا للدراجة والمعطف فهما بالضبط كما أتصورهما ..

سألته نينا : كيف ؟

– ليس أيسر من إخافتهما وإفزاعهما ..

استدار نحو الممر وسار قليلاً .. قالت له ..

– لماذا تظن هذا ؟

– لأن كل الكبار – غالبًا – على نفس المشاكلة وبنفس الطريقة ..

– ووالداك أيضا ؟

– لا .. إنهما لا يخافان من أى شىء !

ومضى ..

– ٩٤ –

وحاولت نينا مرة أخرى .. سألته فى رقة ..

– ما اسمك ؟

سمعته يضحك ، وترامت ضحكته إليها من الغابة ، وقال ..

– وأنت أيضا لا تعرفين ماذا تعنى « زبلن » ؟ !!

– ٩٥ –

جلس مارتن على سلم المطبخ ، وليس فى يده شىء ..لم يكن ذلك معتادًا منه .. فقط كان وقت شرب القهوة هو الذى ينتزعه من الطلاء أو اجتثاث الحشائش .. وكان يبدو وكأنما لم ير نينا وهى قادمة .. ولم يسألها أين كانت ، كل ما فعله أن هز رأسه ، وأطلقت من عينيه نظرات حنان وإن شابها حزن عميق .. وقال لها ..

– لقد تغيرت كثيرًا منذ جئنا إلى هنا .. أستطيع أن ألمح ذلك على وجهك .. وشيء ما قد تغير في عينيك ..

أقبلت لتقف أمامه ..قال مواصلاً حديثه إليها ..

– إنني لا أفهم شيئًا قط مما حدث في هذا الصيف ..لا شيء كما يجب أن يكون .. حتى ولا أنت ..

ومضت نينا إلى صالة البيت ..

– ٩٦ –

هناك شيء ما بالتحديد .. ليس ريتا ، ولا أوتو .. وليس مارتن ، وليس إيفا ، شيء محدد .. إنه « نينا » بالذات ..

– ٩٧ –

جلست إيفا إلى مائدة المطبخ تتطلع إلى الحديقة .. كان يبدو عليها التعب .. وابتسامة صغيرة حزينة من أجل نينا .. قالت ..

– هذا الصيف لم يكن كما تمنيته .. كل شيء مختلف ، بشكل أو بآخر .. ليس الصيف فحسب ، بل والبيت ، والأشياء التي هنا كذلك .. إنني أعتقد أن الحجرات عندما أدخلها تغير من نفسها .. وإنني لخائفة دائمًا من أن شيئًا ما سيحدث .. مارتن مختلف ..وأنت أيضا هذا يفزعني .. إنني أرغب في أن ينقشع هذا الجو الرهيب ، لكي يعود إلينا صيفنا ..

ونظرت إيفا مرة أخرى إلى الحديقة ، وسألت ..

– هل مازال مارتن يجلس على السلم ؟

— نعم ..

لا شيء أكثر .. ومضت نينا إلى الخارج ..

— ٩٨ —

مارتن جالس على السلم .. إيفا فى المطبخ ..

كان يرغب فى أن يمضى إلى الداخل .. وكانت تريد أن تمضى إلى الخارج .. لكن كلا منهما بقى حيث هو .. وذهبت نينا إلى الحديقة ..

— ٩٩ —

الثلاثاء الأربعاء الخميس الجمعة .. أربعة أيام ..

أمطرت السماء مرة واحدة .. وباقى الوقت الشمس مشرقة ..

ورجعت نينا بذاكرتها إلى الوراء .. إلى مساء الاثنين العاشر من يوليو .. كانت هذه هى البداية .. كانت على ثقة من هذا .. ساعتئذ ، بدأ ضميرها السيىء يتحرك ..راحت تفكر فى نفسها .. كانت فى أعماقها بذرة شر صغيرة خضراء مخيفة .. غاصت بداخلها بسرعة .. صارت كبيرة .. ربما تنضج بالكامل بواسطة شمس الصيف ..

— ١٠٠ —

شىء بالتحديد

شىء ما نينا !

- ١٠١ -

الآن ، ها هو قد جاء مرة أخرى

اختبأت إيفا وراء الستارة .. ومالت نينا للأمام .. عند البوابة .. كان يقف رجل الأمس .. رجل اليوم .. إنه نفس الرجل الذى خرج من البيت الأبيض فى الغابة .. رجل ضوء القمر والحديقة الفضية .. الرجل الذى تتساقط نقاط المطر من فوق مظلته السوداء .. كان يقف بدون مظلة عند البوابة ، تغمره شمس الغروب ..

- ماذا يريد ؟

خرج مارتن إلى السلم الأمامى ، لكن الرجل لم يعد بعد هناك ..
رأته نينا فقط وهو يمضى مبتعدًا ، على الطريق ..

- ١٠٢ -

إيفا ومارتن يتحدثان معًا مرة أخرى ، عن الرجل الذى كان عند البوابة .. ماذا كان يريد ؟ ومن هو ؟ هل يكون هو الذى ... ؟ يجب إبلاغ الشرطة بالأمر غدًا .. قد يكون ذلك هو السبيل لحل اللغز .. شىء ما يتحدثان عنه ، كأنما لم يحدث شىء فى الصباح الباكر من هذا اليوم ..

- ١٠٣ -

استيقظت نينا .. كان مارتن يصدر شخيرًا عاليا . وكانت إيفا تتنفس بصعوبة .. وكانت الليلة مقمرة ، وبلا سحب .. وانعكس ضوء البدر على زجاج النوافذ ..

نينا والليل يقظان ! لم يناما !!

- ١٠٤ -

– أنت .. أنت يامن فوق الشجرة ، هناك ..

– أنت .. أنت يامن تحت الشجرة ..

وناءت أغصان الشجرة تحت أقدامها ..

- ١٠٥ -

غريبة جدًّا

كانت يداه بين الأغصان خضراء ، بلون ورق الشجر ، وكانت أصابعهما بيضاء .. ووضعت أصابعها السبابة في يده .. التقى الأبيض والأخضر .. وضع يده فوق شعرها .. ومس أصبع أرنبة أنفها ، وآخر من فوق شفتيها .. وفتحت فمها لكى تدفعه بطرف لسانها .. كان مذاق أصبعه مثل مذاق ورقة الشجر وطعم ضوء القمر الفضى !

- ١٠٦ -

– هل كانت هذه الفتاة أختك ؟

– نعم

– هل أبوك هو الذى حضر إلى هنا بالأمس ؟

– نعم

– أظننى سمعتك تقول إنك تركت البيت ؟

– نعم

– لكن أحدًا لا يتردد على البيت إذا كان قد تركه ..

– حسنًا ، أنا فعلت ذلك ..

– أنا غير قادرة على أن أفهم أى شىء

– لا .. ولا أنا أيضا .. فى الواقع

– ١٠٧ –

– قلت إنه ليس من السهل إخافة والديك ؟

– هذا صحيح .. لا أظن أنه حتى تركى للبيت يمكن أن يزعجهما ..

– لكن لماذا تركت البيت ؟

ظل صامتًا بعض الوقت ، ثم رفع يديه إلى وجهه وغطى بهما عينيه ..

– لقد حاولت بكل وسيلة ، ولم يكن قد بقى أمامى غير هذا ..

– لكن لماذا ؟ ماذا فعلت أو ماذا فعلوا هم ؟

– إننى أحاول أن أفهمهما إن لديهما أطفالاً ..

– ١٠٨ –

من المؤكد أن الليل هو الملوم والمسئول ، والقمر وضوؤه الفضى والسكون الذى من حولهما والشجرة .. من المؤكد أنه الليل .. فالنهار لا شىء فيه ، ولليل : الأفكار .. هذا هو ما كانت تشعر به نينا .. أفكار جديدة .. أفكار أخرى .. أفكار الليل ..

- ١٠٩ -

قالت نينا : إنهم دائما ينادوننى ..

قال : هم لا ينادوننى مطلقا ..

- هم دائمًا يسألوننى أين أنا وماذا أفعل ؟

- هم لا يسألوننى أبدًا أين أنا ولا ماذا أفعل ؟

- إننى - غالبًا - لا أفعل قط ما أرغب فيه

- إننى - غالبًا - أفعل كل ما أرغب فيه

- إننى لا أشعر أبدًا بأننى وحدى

- إنى أشعر دائمًا بأننى وحدى

- إنهم يشغلون أنفسهم دائمًا بما أفعل

- هم لا يشغلون أنفسهم مطلقًا بما أفعل

- ١١٠ -

قالت نينا : إننى أتمنى لو أنهم لا ينادوننى أبدًا ..

- وأنا أتمنى لو أنهم نادونى باستمرار ..

- إننى أريدهم ألا يسألونى أين أنا وماذا أفعل ؟

- وأنا أريدهم أن يسألونى أين أنا وماذا أفعل ؟

- أنا أريدهم أن يدعونى أفعل ما أرغب فيه

- وأنا أريدهم ألا يدعونى أفعل ما أرغب فيه

– أنا أريدهم أن يدعونى وحدى ، مع نفسى أكثر

– وأنا أريدهم أن يهتموا وينشغلوا بى أكثر

– ١١١ –

سألته نينا : هل تحب أن يكون لك أبواى ؟

– لا .. إنهم قلقون عليك بفظاعة .. أنا أريد أبوى ، بالذات ..

– ولكنك تركتهما ..

– وأحبهما فى نفس الوقت رغم هذا ..

– حسنًا .. وأنا أحب أمى وأبى ، لكننى أرغب فى أن يحبانى كما أنا .. إنى أفكر فى أن أترك البيت لهما أنا أيضا ..

تطلع إليها يفكر ، ثم قال ..

– إنك تركته لهما فعلاً ..

نظرت إليه فى دهشة .. وهزت رأسها ..

– فعلاً ، تركتهما ..

– ١١٢ –

سألته نينا : ألا يفهمان ، ألا يدركان ، أن لهما أطفالاً ؟

هز رأسه ..

– لا ، إنهما يفكران دائمًا فى أنفسهما ، وهناك دائمًا شىء خطأ . هما يتنازعان ويتشاجران طيلة الوقت .. أمى باستمرار ترتب حقيبتها

وتختفى من البيت ، ويمضى أبى وراءها ليعيدها إلى البيت .. باستمرار ، باستمرار ..

– الآن أستطيع أن أفهم لماذا تركت البيت ..

– لقد سألتهما أن يكفا عن الشجار والحرب .. نعم ، هما يستجيبان لبعض الوقت ، ثم ينسيان كل شيء ، ويعودان من جديد .. وذات مرة أعلنت لهما أنى سوف ألقى بنفسى من النافذة إذا هما لم يتوقفا .. كان ذلك فى منتصف الليل ، ولم أستطع أن أنام بسبب عراكهما ..

– وهل فعلاً فعلت ذلك ؟

– نعم ، وانكسرت رجلى ، لكنهما استمرا على نفس النحو القديم ..

– ألم تحاول وسيلة أخرى ؟

– هددتهم بتحطيم أفضل طاقم أطباق لدينا إذا لم يسد الهدوء

– وهل أفلح هذا ؟ !

– نعم ، لكننى لم أحطم كل الأطباق ، توقفا قبل أن أنهى عليها .. لكنهما بالليل عادا للشجار والعراك ، لذلك قمت وكسرت الباقى ..

– ألم يغضبا ؟

– بلى ، غضبًا غضبًا شديدًا ..ولم يكن لهما الحق فى ذلك ..

– وما هذا الذى قال أبوك لك فى الحديقة أمس ؟

– قال لى إنهما سيحاولان التوقف عن الشجار والنقار ..

– وهل ستعود للبيت ؟

– لا ، ليس قبل أن أتلقى وعدًا جازمًا بأنهما سيكفان تمامًا عن خلق

المشاكل ، وعليهما أن يعدا بمزيد من التفكير فى أختى وفىّ أنا شخصيًّا ، وليس فى أنفسهما فحسب ، وعليهما أن يعدا بأن يتعاملا بالحسنى .. وأريد ذلك كتابة ، لكى أطلعهما عليها إذا هما أخلاً بالوعد ونسياه ..

– وماذا سيحدث بعد الغد ؟

– إذا لم يعدانى بما طلبت فلن أعود إليهما أبدًا ..

– وإلى أين تمضى ؟

– لن أخبرا أحدًا بذلك ..

– ١١٣ –

نينا كانت تعرف إلى أين سيذهب .. إلى الكهف فى الغابة ، الكهف الذى تحفه المخاطر .. كانت نينا على ثقة من خطورة الموقف ..

– ١١٤ –

كان البيت الصيفى يتألق بياضًا فى ليالى الصيف .. كان مارتن نائمًا ، يصدر شخيره المعتاد ، وكانت تلك الليلة تزدان بلون أزرق سحرى فى الغرف ، وإيفا تتنفس بصعوبة ، ونينا « تطير » بيضاء فى تلك الليلة . تطير نائمة !

– ١١٥ –

كان « زبلن » هو الشمس ، وتناثرت « حبوب زبلن » فى كل جسمها .. تناثرت بكل ألوان الصيف ، وترددت جيئة وذهابًا أغنية زبلن » نينا نينا نينا ..

واستيقظت ، كانت إيفا بجانبها ، تهزها ..

– هل أنت مريضة ؟ هل أُصبت بعدوى ؟

لم تتنبه نينا تمامًا لما تقوله أمها ، إذ كانت الشمس تتألق بداخلها بكل قوة ..

– ١١٦ –

قال مارتن : الدراجة ...

الدراجة ! ..

مضت إيفا ونينا إلى النافذة ، وصاحت إيفا ..

– إنى لا أكاد أصدق عينى

كانت الدراجة الخضراء تستند إلى السلالم الأمامية ، وعليها علامة الشمس على مقبضها ..

– لكن دراجة (جوهانز) أُعيدت إليه بالأمس .. ماذا يعنى هذا ؟ أريد تفسيرًا واضحًا لهذا ..

قالت إيفا : مارتن .. إنى لا أكاد أصدق عينى

– لكنها ها هى أمامك ، حقيقة كيومنا هذا .. اسمعى ..

وامتدت يده تدق جرس الدراجة !

– ١١٧ –

جاء رجل الشرطة .. عاد رجل الشرطة . إنه لم يفهم شيئًا .. كذلك (جوهانز) لا يعلم شيئًا .. كانت الدراجة أمام باب بيته فى مساء الأمس ..

لا أحد يدرك سر هذا الذى يجرى .. فقط : نينا .. لقد رأت كيف يرتعدون خوفًا ، ويستشيطون غضبًا ، مع أن المسألة لا تزيد على أن تكون دراجة خضراء ، انتقلت من مكان إلى آخر ..

- ١١٨ -

بقى يوم واحد .. غدًا سيصبح الأمر غاية فى الخطورة .. وفجأة عرفت نينا ما يجب عليها أن تفعله .. لقد منحها « حلم زبلن » الإجابة ، وعرفت لماذا صحبها إلى بيتها بالأمس .. عليها أن تحاول إنقاذه من مصيره .. الكهف ..إنه إذا ذهب إلى هناك سيكون من الصعب نجاته أو إنقاذه ..

- ١١٩ -

أقبل الجيران على فترات متقاربة .. تعلقوا بسور الحديقة .. أو جلسوا على المروج الخضراء .. أو فى الشرفة .. كانوا جميعًا فى ذهول لما يجرى .. بعضهم قال فى شجاعة إنه (عبث أطفال) لكن كانت هناك نغمة فى أصواتهم تقول إنهم ليسوا على ثقة من كلامهم هذا .. ولم يلحظ أحد أن نينا قد اختفت .. تسللت من البوابة الخلفية للبيت ..

- ١٢٠ -

كانت تريد أن تمضى مباشرة إلى البيت الأبيض فى وسط الغابة .. كانت ترغب فى أن تذهب لتصعد السلم الأمامى وتدق الباب .. وتقول بشكل واضح ومباشر إنهم يجب أن يرضخوا وينفذوا ما يطلبه ابنهم .. لكنها لم تجد لديها الشجاعة الكافية لذلك ..

تباطأت نينا فى خطواتها عندما لاح لها البيت الأبيض من بين الأشجار .. وجلست على التل .. إنها بهذا تكون إلى حد ما تحت أبصارهم ، وإلى حد ما مختفية عن أنظارهم .. وخرج الرجل من البيت ، وتوقف عند السلم ، ونظر إلى التل ، ولمحها ، وسار نحوها فى بطء .. إنها الآن لا تستطيع أن تهرب منه .

- ١٢١ -

قال وهو ينظر إليها فى دهشة ..

- حسنًا حسنًا .. وهكذا جئت وحدك ؟

أجابت نينا : نعم .. هو لا يعلم أنى هنا ..

- أوه ! لا ؟ !

لم تعرف نينا ماذا يجب عليها أن تقول ، تبخرت كل الكلمات الشجاعة التى كانت قد أعدتها خلال سيرها فى الممر لكى تجاهر بها .. سألها الرجل ..

- ألن يعود إلى البيت ؟

هزت نينا رأسها ، أن لا .. لن يعود .. ظهرت على وجهه علامات الحزن ..

قالت نينا : لن يعود إلا إذا وعدتماه كتابة بما سألكما إياه !

نظر إليها وقال : واضح أنك تعرفين الكثير .. أليس كذلك ؟

- لقد قال لى كل شىء

- ليس هذا بصحيح ، لأنه لا يعرف كل شىء ..

سألته نينا : كيف عرفت أنه فى حديقتنا ؟

طافت ابتسامة خفيفة على وجه الرجل ، وقال ..

- خمنت هذا عندما ترامت إلى مسامعى الإشاعات الغريبة ..

- لكن كيف عرفت أنه يجلس فى الشجرة ؟

تطلع الرجل إلى نينا ، ثم إلى الغابة ، وإلى الممر ..وقال :

- إنها ليالى الصيف ..

وسكت قليلاً وتطلعت هى إليه تبغى المزيد .. قال

- أنا أيضا أتجول فى ضوء القمر فى ليالى الصيف ..

كان صوته يبدو وكأنه يأتى من مسافة بعيدة ، ومن أزمان سحيقة ..

قالت نينا : إنه لم يكن يتجول .. إنه كان يجلس فوق الشجرة

ابتسم الرجل برقة مرة أخرى .

- هذه الشجرة هى أكبر أشجار حديقتكم ، ولها أقوى الأغصان ، وأجملها ، وهى لهذا تعطى الجالس فوقها الفرصة لكى يرى مساحة واسعة فى كل الاتجاهات .. ذلك هو السبب فى أننى خمنت مكانه .. ثم هناك شىء آخر ..

وانتظرت نينا ..

- إنها شجرة رائعة لكى يجلس فيها المرء !

هزت نينا رأسها ، إنها توافقه فيما قاله .. وساد بينهما الهدوء !

- ١٢٣ -

جلسا فى حديقة الدار على مقعد تحت الشجرة ، وترامت إليها أصوات من النافذة المفتوحة .. ترى هل هى الأم ؟ هل كانت الأصوات غاضبة ؟ هل تناقشا وتشاجرا وأصبحا أعداء من جديد ؟ يبدو عليه أنه رقيق ومسالم ، وكأنه من غير الممكن أن يدخل فى نقاش حاد مع أى إنسان فى العالم ..

- ١٢٤ -

- هالو .. إن لدينا ضيفة زائرة

وظهر ذراع بنى اللون ووجه باسم فى النافذة ، كانت عيناها أيضا باسمتين ..

نظرت إلى نينا فى حنان وقالت ..

- أنا أعرف من تكونين .. أنت التى أعرت شجرتكم إلى ابننا ..

- ١٢٥ -

جلسوا ثلاثتهم على المقعد فى الحديقه تحت الشجرة .. والداه .. إنهما ليسا كما تصورتهما .. إنها لا تستطيع أن تتخيل أن هذه المرأة يمكن أن تحمل حقيبتها وتغادر البيت . ولا تتصور أبدًا أنه من الممكن أن تكون هى وأبوه أعداء ، جلسا جنبا إلى جنب ، والتفتا لبوابة كل منهما الآخر .. وتذكرت نينا كلا من إيفا ومارتن ، أبويها .. مارتن على السلم ، وإيفا فى المطبخ .. بعيدين تمامًا عن بعضهما !

- ١٢٦ -

قالت نينا : إننى لا أعرف حتى اسمه ..

– ألم يذكره لك ؟

لاحت ابتسامة صغيرة على وجه الأم ، وقال الأب ..

– أستطيع أن أتصور هذا ، أنا على ثقة من أنه سوف يذكره لك عندما يريدك أن تعرفيه ..

- ١٢٧ -

– اسمى إيلى ..

– اسمى أوسكار ..

– وأنا اسمى نينا ..

- ١٢٨ -

– يجب أن تقنعيه بضرورة العودة إلى البيت ، وقولى له إن كل شىء على ما يرام ؟

قالت نينا : هذا لا يكفى .. هو يريدكم أن تعدوه بأنكم لن ...

وفجأة وجدت نفسها غير قادرة على أن تواصل الكلام .. واحمر وجهها ونكست رأسها إلى الأرض !

- ١٢٩ -

قالت إيلى : إننا نعرف أنه يريد منا وعدًا قاطعًا ..

قال أوسكار : إنه يشعر أننا ننسى أن لدينا أطفالاً وأننا لا نفكر إلا فى أنفسنا ..

قالت نينا : واليوم جد خطير ، إذ تنتهى المهلة التى حددها لكم ..

نظر إليها أوسكار بانزعاج وقال : جد خطير ؟ !

وسألت إيلى فى قلق : ماذا يعنى هذا ؟

قالت نينا فى حزم شديد :لا أستطيع أن أقول شيئًا ..

– ١٣٠ –

قال أوسكار : نحن نحب ابننا وابنتنا ..

أضاف إيلى : ويحدث أحيانًا أننا نختلف ، ونتناقش فى حدة ،وقد ننفصل بعض الوقت ، لكن هذا الذى يجرى ليس دائمًا بالخطورة التى يتصورها ..

قال أوسكار وهو ينظر إلى يالى : لا ، ليس دائمًا ..

قالت إيلى وقد عقدت جبينها : إنها ليست غلطتى وحدى

قال أوسكار : لا ، أنا لم أقل هذا أيضًا

قالت إيلى : لكنك تعنيه .. تقصده ..

– لا لا .. لا أعنى هذا ولا أقصد ..

قالت إيلى فى صوت أكثر وداعة : لا داعى لأن نناقش هذا الآن .. عندنا ضيفة ..

ونظر اتجاه نينا فى اضطراب ، وقال أوسكار :

— تستطيعين — كما سمعت — أن تعرفى أننا نختلف وقد نحتد ، ويحاول كل منا أن يثبت للآخر أنه هو الذى على صواب ..

قالت إيلى : نعم ، وبالذات واحد منا !

وغرق أوسكار فى صمته ، وبادلها النظرات ، وقال ..

— ولكننا زوجان ، وكل منا معجب بالآخر على الرغم من كل شىء .. أليس كذلك ؟

ابتسمت له إيلى ، ابتسمت أكثر قليلاً مما ابتسمت نينا ..وقالت :

— وهكذا ترين أنه من الصعوبة بمكان أن يبذل طرف ما جهدًا ولو كان ذلك لصالحه الخاص ..

كانا يتكلمان ، وكأنها تفهم هذا الذى يقال .. قالت نينا

— هو يقول إنكما لا تفكران إلا فى أنفسكما .. فقط ..

وسكتا ..

— ١٣١ —

قالت إيلى : يا ولدنا المسكين ! إنه يظن أننا ندفعه لترك البيت .. ليس من السهل أن يكون المرء صغيرًا وقلقًا ..

قالت نينا : إنه ليس بصغير ولا بقلق ..إنه كبير وشجاع ولديه الجسارة التى تجعله يأتى بأعمال كثيرة ومبهرة ..

وتبادلا النظرات ..

قال أوسكار : الواضح أننا نعرفه بطرق مختلفة ومتباينة ومتغايرة ..

قالت إيلى : هل أقول لك ما نظنه فيه ؟

ردت نينا : نعم

– إنه يريد كل شىء من حوله آمنًا سالمًا هادئًا .. وأن يكون كل واحد لطيفًا مع الآخر .. هو يظن كلما ناقشنا شيئًا واختلفنا أننا أعداء !

أضاف أوسكار : وهو إذا كان ينظر للأمور على هذه الصورة فإن عليه أن يغلق على نفسه مكانًا لا يسمع فيه همسة ..

قالت إيلى : إنه لطيف مع أخته مع أنها فى التاسعة من عمرها ، وأصغر منه بثلاث سنوات .. وهما يلعبان معًا أحيانًا بلعبها ..

وقال أوسكار : إنه مازال صغيرًا بالنسبة لسنه ، وإن كان قد بدأ يكبر وينمو !

لم تكن نينا تعرف هذا ..

– ١٣٢ –

قال أوسكار : لكن ابننا أيضا شجاع ، وأعرف تمامًا لماذا غادرنا ..

سألتها نينا : فى دهشة : ألست غاضبة من أجل هذا ؟

وتذكرت يوم تركت البيت هى أيضًا ..

قالت إيلى :لا .. لكننى أشعر بأنه من الضرورى أن يعود للبيت فورًا ..

نظرت إليها نينا فى ذهول ، بينما ابتسم أوسكار ، وقال :

– المسألة تزداد تعقيدًا ..

لم ترد نينا ..

– الشيء الرائع في ابننا أنه ينفذ ما يقوله ، ويعمل بما يراه ..

وتذكرت نينا ما قاله لها عن اليوم الذى قفز فيه من النافذة ، واليوم الذى حطم فيه الأطباق .

– فى الأسبوع الماضى حدث مرة أخرى أن تبادلنا كلمات تتجاوز ما تعنيه .. كان ذلك فى اليوم الذى قال فيه إنه غير قادر على احتمال ما يجرى .. وقرر أن يتركنا .. وفعلاً نفذ هذا ..

قالت نينا : وهو سيعود إليكما إذا ما فكرتما فيه أكثر وأعطيتماه عناية أكبر .. إنه لا يمكنه أن يتحمل كل هذا النقار والشجار ..إنه يسبب له حزنًا كبيرًا ، ويؤذيه أذىً عميقًا ، ويجعله يصرخ ويبكى ، ويتصرف بلا تعقل و ...

وسكتت نينا فجأة .. إنه لم يقل كل هذا لها ،ولكنها شعرت بأن هذا يمكن أن يحدث معها عندما يتشاجر أبوها مع أمها .. لقد كانت تتكلم عن نفسها ..

– ١٣٣ –

قال أوسكار : نحن لا نستطيع أن نعد بهذا

وقال إيلى : نحن نستطيع فقط أن نبذل أقصى جهدنا

– إن عليه أن يدرك أننا نحبه ونهتم به ونرعاه ، ولا أستطيع أن أفهم قط قوله بأننا لا ندرك بأنه لدينا أطفالاً ..لأننا نعرف ذلك عن يقين ..

استمعت نينا إليهما ، وفى تقديرها أنهما يبسطان الأمور بأكثر مما يجب ..إنه بهذا لن يعود إليهما ..قالت ..

– هذا لا يكفى ..قلت لكما إن غدًا سيحمل كوارث رهيبة !

تبادلا النظرات فى خوف وفزع ..

إن الأمور أصبحت أكثر صعوبة وتعقيدًا بالنسبة لهما ..

– ١٣٤ –

تلفتت نينا من حولها

كان التل يخفى البيت .. تراجعت للوراء بضع خطوات ،رأت البيت مازال فى مكانه .. إذن ، هى كانت هناك بالفعل ..

– ١٣٥ –

قال مارتن : الليلة ..

قالت إيفا : الليلة ..

قال مارتن : سوف أظل مستيقظًا طيلة الليلة ، وإذا لم تكن الشرطة قادرة على أن تصنع شيئًا ، فإن علىّ أنا أن أحاول ..ولن أكون مهذبًا ..رقيقًا .. عندما أمسك بتلابيب « أيامن كان » الذى يزعجنا كل هذا الإزعاج ..

– ١٣٦ –

كانت هناك سحب سوداء يحددها إطار أبيض ، مما ينذر بجو ممطر على الحديقة ..صحت نينا .. مشت بأقدامها العارية فوق الأرض .. كانت إيفا وحدها النائمة ومضت إلى السلم بهدوء وحذر .. كان مارتن نائمًا ، ويراقب الأمور جالسًا إلى مائدة المطبخ .. وهناك فى الخارج فى الحديقة

كان اللونان : الأسود والفضى يتبادلان المواقف ونسمات تهب خلال المروج الخضراء وما بين أوراق الشجر .. كانت الريح التى تسبق المطر ..

- ١٣٧ -

تأرجحت أغصان الشجر بقوة وعنف ...

قالت نينا .. لقد كنت فى بيت والديك اليوم .. إنهما لا يستطيعان أن يعداك بشىء !

لفت وجهه ناحية جذع الشجرة ، وأوراقها تتماوج من حوله ..

همس : إذن ليس أمامى غير شىء واحد وأقوم به ..

- لقد سألونى عنه ..

- شىء واحد أقوم به ..

وسرى اليأس وكبر بداخلها .. إنها لن تستطيع أن تحول بينه وبين الذهاب للكهف ..

- ١٣٨ -

قالت فى رقة : لقد كان أبواك لطيفين معى ، تحدثا إلىّ وكأننى لست أنا ..

نعم ، كان هذا فعلاً هو ما حدث منهما

- أتمنى لو أن أمى وأبى كانا مثلهما ..

- إذن لن أعود إليهما ، لن أستطيع ذلك ..

- إنهما يهتمان بك كثيرًا ..

– إذا كان الأمر كذلك فليثبتاه ، إننى دائمًا فى خوف وفزع من أن ينشب الشجار بينهما .. إننى أستيقظ فى منتصف الليل مرتعدًا .. وهما لا يهتمان بما أقوله .. ولا يستمعان إلىّ .. وكأنما أنا لست هنا .. إنهما يدفعانى جانبًا كأننى أقف فى طريقهما ، وفى اليوم التالى يقولان لى إنهما يحبانى .. أنا أريدهما أن يحبانى كل الوقت .. وليس فى الوقت الذى يختارانه .. وألا يكون ذلك الحب مجرد كلمات يقولانها ، يجب أن يعنيا ما يقولانه ، وأن يدركاه ..

هل كان يبكى ؟ .. نينا لم تكن متأكدة ..

– إننى لا أستطيع أن أحتمل أن يغضب كل منهما الآخر ، ويتشاجران ، وينسيان أننا نحن أيضًا ...

ولم يمض فى كلامه أكثر من ذلك .. وخلال الريح التى كانت تهب مداعبة أوراق الشجر ، والضياء الذى ينشره نور القمر انطلقت صرخة عالية مدوية بائسة ..

– مارتن ! لقد اختفت نينا ..

تبادل الاثنان فوق الشجرة النظرات ، واتسعت أعينهما رعبًا .. وانفجر الباب مفتوحًا ، واندفع شبحان يجريان فى الليل .. فى ليل نينا !

- ١٣٩ -

_ نينا ..

حملت الريح النداء إلى مسافات بعيدة .. كان صارخًا مدويًا .. وإيفا فى قميص النوم ، ومارتن فى بيجامته ، يدوران حول أنفسهما فى يأس ...

– نينا

وأطل الاثنان من فوق الغصن الذى يجلسان فوقه .. كانت إيفا تبكى وسمعتها نينا ..

– ماذا حدث يا مارتن ؟

– كيف لى أن أعرف

كانا يتفجران غضبًا ، وخوفًا ، وقلقًا .. والريح تعبث بثيابهما ..

– هل أخذها الرجل ؟

– قلت لك إنه ليست لدى أية فكرة عما حدث ..

وراحا يذهبان ويجيئان ، يحثان ولا يحثان .. إنهما لا « يطيران » ولا « يسبحان » فى الحديقة .. إنهما يضربان فى جنباتها بطرقة عشوائية عابثة ..

صرخ مارتن : لكن كان لابد وأن تحس بها عندما قامت من نومها ..

صاحت فيه أيفا من بين الشجيرات : وأنت كان المفروض أنك تقوم بدور الحراسة ..

– كنت أنت أقرب إليها ..

– وكنت أنت أقرب إلى الباب الخلفى

كانت الكلمات مبتورة بسبب الرياح التى تجتاح الحديقة كلها .. حشائشها وشجيراتها .. فوق الأشجار ، وفوق ، حيث يجلس الاثنان .. كانت نينا تصغى متخشبة غير قادرة على أن تنظر إلى الولد ، وبين حين وآخر تتطلع إلى والديها : إيفا ومارتن ..لكنهما لم يكونا إيفا ومارتن اللذين

تعرفهما .. هذان لم تعرفهما من قبل .. إنهما يبدوان صغيرين ، ولا يمكن ..

– أين يمكن أن تكون ؟

ماذا حدث ؟

– الشرطة يا مارتن

– هذا أفظع شيء فى الأمر

– إنها ابنتنا

كلمات مبتورة ، ممزقة ، تطير إليهما حيث هما ، وتصلهما بأصوات يائسة .. كان فى استطاعة نينا أن تقفز إلى الأرض . إليهما وتقول : « ها أنا ذا » .. هى تستطيع أن تعيد إليهما سعادتهما ، لكنها بقيت حيث هى متعلقة بالغصن المتأرجح ، لم تكن تعرف ماذا تفعل .. وهما يجريان هنا وهناك ، كأنهما طائران بأجنحة محطمة .. كأنهما ورقتان فى مهب الريح .. يلفان ويدوران ، بلا تفكير ، ودون أن يعرفا ماذا يفعلان ..قال مارتن وهو يحاول أن يعزى نفسه وإيفا ..

– لا يمكن أن يكون أحد قد دخل البيت وإلا فإننا كنا سنحس به ونسمعه ..

– لكن ، إذن ..إذن لابد وأن تكون قد خرجت بمحض إرادتها ورغبتها ..

صرخ مارتن : إنها غلطتك .. إنك أنت التى دفعتها لهذا الذى فعلته ..

وساد الصمت ..

– هل سمعت ما قلته ؟

كان صوت مارتن قد ارتفع مع الرياح .. بدا كأنما هو واحد من عفاريت الريح .. كأنه « خيال مآتة » الحديقة .. إنه ليس هو مارتن !

قالت إيفا فى حزم وهدوء .لكن نغمة صوتها وصلت إليهما فوق الشجرة :

– إذا كان هناك من يلام عما حدث ، فإننا معًا ملومان ولست وحدى الملومة ..

– لكن ..لكن ، أنت ..

قاطعته إيفا فى نحيب ، وصاحت : إنها ابنتنا معًا ، ألا تستطيع أن تدرك هذا ؟

كانا كمن يشاهد التليفزيون ، أو من يقرأ كتابًا .. لكن الأمر مختلف تمامًا .. كانت نينا ترى شيئًا هو قطعة منها ..

– نينا .. أرجوك . أين أنت ؟ كانا وكأنهما يلعبان « الاستخفاء !! » .. كأنهما يقولان « اظهر وبان وعليك الأمان » .. وهى لا تستطيع أن تتحرك ، فما من أحد يتبسم ، ورفعت إيفا رأسها نحو القمر ، والسماء ، وهتفت : نينا ، أرجوك ..

لكن نينا بقيت فى مكانها ، ثابتة لا تتحرك .. إنهما لم يصابا بالشلل ، لكن الشجرة كانت عالمًا آخر ، منفصلاً عن هذين اللذين يصرخان ويجريان فى الحديقة ..

توقف مارتن على مسافة قصيرة ..وقال :

– ما من مبرر لهذه التشنجات والصرخات .. كل ما ستفعلينه أنك ستوقظين الجيران !

بدأت إيفا تبكى بصوت عالٍ ، وتتابعت شهقاتها طويلة صاخبة ،وراح جسدها يهتز ويرتجف ، وصاحت فيه ..

– أنت لا تفهم شيئًا على الإطلاق ..

ذهب مارتن إليها ،ذراعاه مفتوحان ، فصرخت فيه :لا تلمسنى

تجمد مارتن فى ريح ليلة الصيف ، ولم تتحرك إيفا .. كأنما توقف الزمن .. ونظر الولد إلى نينا ونظرت نينا إليه ، وكانت الدموع تنساب من عينيه فى خيوط متصلة ، وبدأت نينا تهبط من فوق الشجرة .. كان هذا هو الشىء الوحيد الذى تستطيع أن تفعله ..

« نينا »

هكذا هتفت مارتن فى حلم

ونظرت إليها إيفا فى حلم

« نينا »

حاولت إيفا أن تمد ذراعيها ، غير أنهما لم يطاوعاها .. .

– أين كنت ؟

– ماذا حدث ؟

عاد مارتن إلى نفسه رويدًا رويدًا ..

– من الأفضل أن تجيبى ، ياطفلتى ..

وتقدم نحوها ، وإيفا على أثره ، ومن ورائه ، وضغطت نينا نفسها فى جذع الشجرة ، بينما قالت إيفا فى صوت خفيض حاولت أن تجعله هادئًا ..

نينا ، إنى غير قادرة على أن أفهم ..

– هل تسللت من البيت لمجرد أن تخيفينا ؟

ارتفع صوت مارتن ، وتقابلت أعينهما ، خيال مآتة الحديقة . عفريت الرياح .. إن حديقة الليل لا تصلح لمارتن وإيفا .. وفتحت نينا ذراعيها كأنما تريد أن تحمى الشجرة من خلفها ..

فجأة بدأ كأنما فهم مارتن شيئًا ..

– ماذا كنت تصغين فى هذه الشجرة ؟

قالت إيفا : الشجرة ؟ هل كنت فوق الشجرة طيلة الوقت الذى كنا فيه نصرخ ونولول ؟

نينا ، ماذا جرى لك ؟

وتقدم الاثنان نحوها .. كان يكبران ويكبران ويتضخمان ويتضخمان وأصبحت أيديهما بيضاء لامعة ذات مخالب .. لقد جاءا من النهار .. وكانت نينا تظن أنها تساعدهما بالهبوط من فوق الشجرة ، وزحفا تجاهها ، وسمعت صوت الحديقة الفضية وهى تنسحق تحت أقدامها .. وصرخت : لا .. لا لا لا ..

– ماذا كنت تعملين فوق الشجرة ؟

وهزتها أذرع مارتن ، وهو يصرخ فيها :

– أجيبينى ! سوف تردين على أسئلتى ..لقد ظللت صامتة على مدى أسبوع كامل ، لكننى الآن يجب أن أحصل على جواب ..

صرخت إيفا : مارتن ، ما هذا الذى تفعله ؟

فجأة ، وتركها تمضى من بين يديه

– سوف أجد بنفسى تفسير كل هذا ..

ومضى نحو الشجرة ، فصرخت نينا : لا .. لا .. وألقت بنفسها على أبيها ، وحاولت أن تمسك به ، وقد أخذ مارتن بحركتها هذه ، وأذهلته ، فتوقف ونظر إليها ، وقال لها فيما يشبه الهمس ..

– ماذا يعنى هذا ؟

– إنه غير مسموح لك .. إنه غير مسموح لك .. ممنوع ، ممنوع !

كانت نينا تصرخ بهذه الكلمات بنفس الطريقة التى كانوا يصرخون بها .. وحرر مارتن نفسه منها ، لكن نينا عادت إليه مرة أخرى ، وطوقته بذراعيها وأنشبت اصابعها فيه ،وراحت ترفس بقدميها ..

– نينا ، ما هى حكايتك ؟ ماذا بك ؟

حاول مرة أخرى أن يحرر نفسه منها ، غير أنها لم تستسلم ، وظلت متشبثة به ، صارخة فيه :

– إنه غير مسموح لك .. إنه غير مسموح لك ..ممنوع ، ممنوع !

وظلت تصرخ حتى بح صوتها ، وقد انطلقت صرخاتها عبر كل الحديقة ، والشجيرات والمروج الخضراء ، إلى أن وصلت إلى الجيران ، فأضيئت

المصابيح فى البيوت ، وفتحت الأبواب .. وفجأة قفز شبح من الجانب الآخر من الشجرة ، وصرخت إيفا وهى تشير إليه ..

– انظر هناك ..

انطلق ذلك الشبح فوق الحشائش الخضراء ناحية الجانب الخلفى للبيت ، وحاول مارتن أن يقتفى أثره ، لكن نينا ظلت ممسكة به ، وهى تصرخ وتبكي : لا لا .. ذلك أن مارتن كان يريد أن يتسلق هذه الشجرة ، وكان يريد أن يمضى وراء الولد الذى كان فوق الشجرة ، ولأنها سمعت بوابة الممر تنغلق بواسطة الرياح ، ولأنها أحست أنها لن ترى الولد مرة أخرى راحت تصرخ وتولول ، وقد أقبل الجيران من كل ناحية فوصل إلى أسماعها وقع أقدامهم على المروج الخضراء ، ولمحت أضواء مصابيحهم ..

– ماذا هنالك ؟

– ما الذى يجرى ؟

مرة أخرى راحوا يتكلمون جميعًا ، معًا .. وكانت نينا قد سقطت سقطة مدوية فوق الحشائش ، ورأت بعض أضواء المصابيح الصغيرة تتجه ناحية بوابة الممرة ..

وانقضت بقية الليلة فى أصوات واستجوابات وفناجين القهوة .. وقد رقدت نينا تحت اللحاف ، وترامت إليها أصوات من تحت ، من الحديقة ، وجاءت إليها إيفا ، وجلست على حافة الفراش وحاولت أن تتكلم ، لكن نينا لم تنطق بحرف واحد ..

ووصل الطبيب ، وفحصها ..وفجأة طلع الصباح ، بشمسه المشرقة ودفئه .. وقد بذلوا كل المحاولات .. حاولوا بالرقة والعطف .. وحاولوا بالضغط والتهديد الخفيف ، لكن نينا ظلت صامتة .. إنها لم ترهم .. لقد أجلسوها فى مقعد جلسة مستقيمة ولكنها لم تكن موجودة ، كانت شبه غائبة عن الوعى ..

ثم جاءت الشرطة ، والجيران ، وآخرون .. كانوا يريدون أن يفتشوا كل الأحياء المجاورة والغابة القريبة .. وانطلقوا جميعًا .. وبقيت إيفا ونينا وحدهما .. كانت نينا على يقين من أنهم لن يعثروا عليه ولن يصلوا إليه ..

وعاد مارتن إلى البيت مرهقًا ممزقًا بعد ساعات طوال من البحث وتطلع إلى نينا كأنما هى شخص أجنبى .. واستمرت نينا جالسة فى مقعدها فى صمت مطبق ..

- ١٤٢ -

وفى وقت متأخر من بعد الظهر عاد رجل الشرطة .. وجلس الكبار الثلاثة بجانب نينا ..

قال رجل الشرطة بعد أن تطلع إليها مليًا :

- هل تريدين أن تقولى لنا ماذا حدث ؟

نظرت نينا عبر النافذة ..

- هل أغراك بالخروج من البيت ؟

لم تكن هناك ريح تداعب الأشجار ، الآن ..

– هل آذاك فى شىء ؟ فيما كان يتحدث . تعرفين أنه من الضرورى أن نجده ، لأن ما فعله غاية فى الخطورة ..

سألته نينا : ماذا فعل ؟

ذهل الجميع ، لأنها فجأة قد تكلمت ..

قال رجل الشرطة : إنه ... ثم تردد ، وصمت ..

قالت : إنكم لا تفهمون أى شىء على الإطلاق

– نينا ، من فضلك .. نرجوك ..

كان مارتن وإيفا مذعورين مفزوعين ، لكن نينا عادت إلى الصمت المطبق مرة أخرى .

– ١٤٣ –

وفى ساعة متأخرة من ذلك المساء كانت هناك دقات على الباب ..إنه الرجل الذى شوهد واقفًا عند البوابة .. نظرت إليه إيفا

ورفع بصره على نينا وابتسم ، قائلاً : أهلاً

أجابت نينا : أهلاً ..

ذعرت إيفا ، ونظرت إليها ، ثم تطلعت إلى الرجل ..الذى قال :

– أعتقد أنه من واجبى أن أوضح بعض الأمور وسوء الفهم الذى حدث ..

قال له مارتن : أوه ! ماذا ؟

– نعم ، لقد سمعت آخر الإشاعات ،والآن وقد أصبحت على درجة

كبيرة من الخطورة كان علىّ أن أضع حدًا لها ، كما أننى أريد من ابنتكم أن تعيننى وتساعدنى ، وذلك فى مقدورها ..

نظرت إليه ايفا فى ريبة وشك ، وقالت : من نينا ؟ !

– نعم ، إنها الشخص الوحيد الذى يعرف أين يمكننى أن أجد ابنى ..

– ١٤٤ –

عقب ذلك نظر الجميع إلى نينا فى دهشة بالغة ...

– لماذا لم تقولى لنا كل هذا ؟

– لقد أفزعتنا بشدة

ظلت نينا على صمتها ، ونظر إليها الرجل ، فبادلته نظراته ..قال ..

– ربما لم يكن مسموحًا لها بأن تقول

– غير مسموح لها ؟

– لكن ، نينا ، كيف يمكن أن تصدقى ..

لكنها لم ترد ..

– ١٤٥ –

سألت إيفا الموجودين : ماذا سنفعل الآن ؟

قال أوسكار : يجب أن نحاول إعادة ابنى

قال مارتن : نعم ، أنا أرى هذا أيضًا .. وأعتقد أن ابنك يستحق الضرب عقابًا له على ما فعل ..

رد الرجل : لقد أزعجكم ، ما من شك فى ذلك ..هل تعرفين أين هو يا نينا ؟

هزت رأسها : أى نعم ..

– هل باستطاعتك أن تأتى به ..

هزت رأسها : أن لا ..

قالت إيفا وهى فى حرج : ولكن يا نينا ، لابد لك من هذا ..

قالت نينا : يجب أن يقرر هو بنفسه ولنفسه إذا كان يريد أن يأتى ..

هز أوسكار رأسه ، وقال : ولكن فى استطاعتك أن تذهبى إليه وأن تبلغيه أننا نريده أن يعود ..

– لن أذهب إليه إذا كان سيعاقب ، لأنه لم يرتكب أى خطأ على الإطلاق ..

لم يصدق أبوها أذنيه .. قالت نينا ..

– لا ، لم يرتكب أى خطأ .. كونوا على يقين من هذا .. إذا وعدتم بأنكم لن تعاقبوه قط ، ولن تمسوه بأذى ، ربما يكون فى مقدورى أن أذهب ..

كان مارتن : « والدها » صامتًا .. أضافت نينا ..

– هل تعدون ؟

نظر أبوها إليها فى ذهول ، بينما انتظر أوسكار وإيفا الرد ..

سألت نينا مرة أخرى : هل تعدون ؟

قالت إيفا : هل تستطيع أن تعطيها هذا الوعد يا مارتن ؟ إنه على كل مجرد ولد صغير ..

قال مارتن : لا أظن أن من الممكن بعد كل ما فعل ألا يعاقب ..

قالت نينا : فى هذه الحالة لن أذهب ..

قالت إيفا : مارتن .. أرجوك ..

قال أوسكار : الحقيقة أن الأمـر لم يكن يشكل خطورة لهـذه الدرجة ..

رد مارتن فى غضب : هل أنتم جميعًا ضدى ؟ كلكم علىّ ؟

ولم ينطق أحد بكلمة .. وانتظر الجميع

قال مارتن : حسنًا ..حسنًا .. يجب أن أرضخ ، لكن يجب أن يسمح لى بأن أخبره بأن عليه ألا يفعل شيئًا من هذا القبيل مرة أخرى .. هل توافقين على هذا يانينا ؟ !

قالت : على أن تقول له هذا فى رقة ، وبلا غضب ..

قال أبوها :حسنًا ، سأحاول ..

نظر إليها أوسكار وقال : هل لك أن تسأليه أن يعود إلى البيت ؟ قولى له إننا سوف نبذل أقصى الجهد ، هذا هو كل ما نستطيعه ، وإننا على كل سنتكلم عن أشياء كثيرة .. ولا أستطيع أن أعده بأن كل شىء سيكون رائعًا ومثاليا منذ الآن ، لا .. سنحاول ..

هزت نينا رأسها ..

سأل مارتن نينا : هل تجرئين على الذهاب ؟

فكرت نينا فى الممر ، وفكرت فى الفرسان ، وفى الذئاب ، وفى العنكبوت العملاق ، وفى الرجال الطوال النحاف الذين يضعون على رءوسهم قلنسوات سوداء ..

- هل تجرئين على الذهاب ؟

إنها الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يؤدى هذه المهمة ، والذى يعرف الطريق ويمكنه أن يمضى فيه .. لقد فهمت الآن لماذا أخبرها بالممر والكهف والمخاطر ..إنه يريد منها أن تعثر عليه وتعيده ، إذا ما شكل الأمر خطورة فظيعة يومًا ما .. كان يعتمد عليها ، ويجب أن تثق فيه .. ما كان ليقول لها لولا ثقته فيها وفى قدرتها على التغلب على هذه المخاطر ..

قال مارتن : أظن أنه من الأفضل أن أذهب معك ..

لا يمكن ، لابد من أن تذهب وحدها ..

- قد أتتبعك عن بعد ..

كان هناك فى صوته شىء ما ، لم تسمعه من قبل .. هزت نينا رأسها .. ذلك ممكن ، ومقبول ..فقد يحدث ما لا تحمد عقباه .. وقفت ، وبحثت عن مصباح صغير ، وتبعها مارتن إلى الباب ..

- نينا ..

التفتت إلى الوراء ،لتجد أمها تنظر إليها بعيون مليئة بالدموع .. ثم هزت رأسها ، ونظرت إلى المائدة ، ولم تقل شيئًا آخر ..

- ١٤٧ -

سارا حول المنزل ، نحو البوابة الخلفية ، وكان الظلام حالكًا بين الأشجار ، تلك الظلمة التى كانت تخشاها .. ومضى مارتن من خلفها فى الممر ، ولم يكن يدرى ماذا يقول .. ما كان باستطاعته أن يمر بيده من فوق شعرها كما كان يريد ، ولا فى مقدوره أن يربت على كتفها كما كان يرغب .. لقد شعر بغرابة الموقف : أن يسير وراء نينا ، والعادة أن يحدث العكس ..

- ١٤٨ -

ووصلا إلى حيث ينتهى الممر ، وأضاءت نينا المصباح ، ووجهت ضوءه نحو النباتات الطويلة السيقان .. لم ينته الممر بالكامل ، لكن كان هناك طريق ضيق وسط النباتات عليها أن تمضى فيه ..

قالت نينا لأبيها : تستطيع أن تنتظرنى هنا

سألها : هل تجسرين على المضى وحدك داخل هذه الأحراش ؟

أجابت : نعم ..

- عليك إذا خفت أو حدث شىء أن تصرخى وتنادينى ..

- طيب ..

- سأنتظر هنا إذن ..

ومضت نينا

رأى الضوء الذى يشعه المصباح الصغير ، يسبقها وهى تمضى للأمام .. وتواترت أفكار جديدة خطرت له ، ما كان يريد أن يفكر فيها ،

وما كان يعرف كيف يفكر فيها ..إنها أفكار تدور حول كون المرء : كبيرًا وصغيرًا .. كانت نينا كبيرة بحق وهى تمضى وحدها وسط الأحراش المظلمة ..

قالت له : أبى ؟

- نعـم ..

- هل تجرؤ على الوقوف هنا وحدك ؟

أجابها فى ثقة : نعم .. ثم أضاف .. أظن ذلك ..

- ١٤٩ -

أصبحت الغابة أكثر كثافة ، ثم عاد الممر مفتوحًا واضحًا مرة أخرى .. كان الظلام يختفى بين الأغصان ، ظلام كثيف دامس .. كان قلبها خائفًا غير أنه كان هناك مع دقات قلبها صوت يردد : زبلن ..زبلن .. لذلك مضت غير هيابة ولا وجلة ، يقودها شعاع ضئيل من مصباحها الصغير ، ولم يكن ضياء القمر فى استطاعته أن ينفذ عبر الأشجار المتشابكة ..هس ، ما هذا ؟ .. كان هناك صليل .. شخصًا ما أخرج سيفًا .. إنهم الفرسان الأربعة .. كلها مضت ولم تتلفت حولها .. وكانت هناك شجيرتان على جانبى الممر ، تشابكتا ، وحالت بينها وبين المرور .. ولابد لها أن تسير .. وفى الحال عرفت كيف يمكنها ذلك .. قالت : زبلن .. وتساقطت السيوف الأربعة على الأرض ، محدثة صليلاً ، واتسعت الفرجة بين الشجرتين ومرت .. ثم أصبح الممر منحدرًا ،وسار من حول صخرة كبيرة اعترضت طريقه ، وتحرك شيء ما بين الشجيرات ، وسمعت خربشة وعواء ، وانعكس الضوء على اسنان بيضاء حادة ، همست :زبلن .. وتوقف العواء ، وسكنت

الشجيرات ، فمضت .. والضوء الضئيل يتحرك أمامها على الممر .. ثم انفجرت الأشجار عن بقعة خضراء خالية من الشجر ، وبعث القمر بخيوط ضيائه إلى هذا المكان ، وترامى إلى أسماعها نغم هادئ جميل ، كانت تعرف ماذا ينتظرها ، لكنها لم تلتفت إلى الوراء .. وارتفع صوت الموسيقى ، وأصبحت خيوط الضوء صفراء .. لا ، إنها لن تتراجع .. خطرت لها كلمة « زبلن » .. وانزاح السحاب عن القمر ، فتألق ، وأصبحت الموسيقى هى نفحات الريح ، وفجأة أمسك شىء ما برجلها .. آه ، ها هى تخطو داخل خيوط بيت العنكبوت ، وتدخل من جديد إلى الغابة الكثيفة .. ثم سمعت صليلا على طول الممر ، ولمحت ظلالاً تمتد لتصبح طويلة نحيفة ، وتجمعت معًا فى الظلام الدامس الخطير .. كانت الظلمة هى قلنسواتهم السوداء .. خطرت لها كلمة « زبلن » .. وانمحى الظلام ، وتسلل ضوء هادئ رقيق على الطريق ..

وأخيرًا وصلت .. تل وسط الغابة .. وفيه طريق يقود إلى الكهف ، وقد فغر فاه ..

قالت : ها هو أنا ..

قال : نعم ؟

قالت : هم يريدونك أن تعود إلى البيت

لم يجب ..

– لن تضرب .. ولن تعاقب .. جعلتهم يعدون بذلك ..

لم يجب ..

– هم يريدونك أن تعود إلى البيت .. على أية حال !

لم يجب

وتذكرت المائة عام التى يمكن أن يقضيها فى الكهف .. وقالت ..

– لسوف أكون هنا طيلة الصيف ، وأظن أنه من الممكن أن نكون أصدقاء ..

وانتظرت ، إلا أنه لم يرد

– هل ستأتى معى إلى البيت الآن ؟

– ربما ..

– ما عاد باستطاعتنا أن نستخدم الشجرة ، فقد كشفوها .. لكن بمقدورنا أن نجد مكانًا آخر ..

قال : أعرف مكانًا ..

– هل ستأتى الآن ؟

– لا .. لست أدرى

بدأت تأخذ طريقها إلى الممر ، سألها ..

– هل ستغادرينى ؟

– نعم .. أبى فى انتظارى ..

وقفت ساكنة ساكتة ، وكذلك الولد .. ثم قال ..

– إنك لا تعرفين حتى اسمى

– لا أعرفه ، لكن أعرف من أنت

ومشت مبتعدة ، وسارت بين الأشجار ، وأتاها صوته ..

– ولا تعرفين أيضا معنى كلمة زبلن

قالت : لا ، لا أعرفه .. لكننى أعلم كيف تؤدى مهمتها

ثم ساد الصمت .. ومضت عائدة من فوق الممر .. وفجأة وصلت أضواء القمر إلى ما بين الأشجار ، وأطفأت نينا مصباحًا ...

* * *

رقم الإيداع	٢٠٠٢/١٩٦٢٠
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6377-X

٧/٢٠٠٢/٧٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)